716

روايات عبير

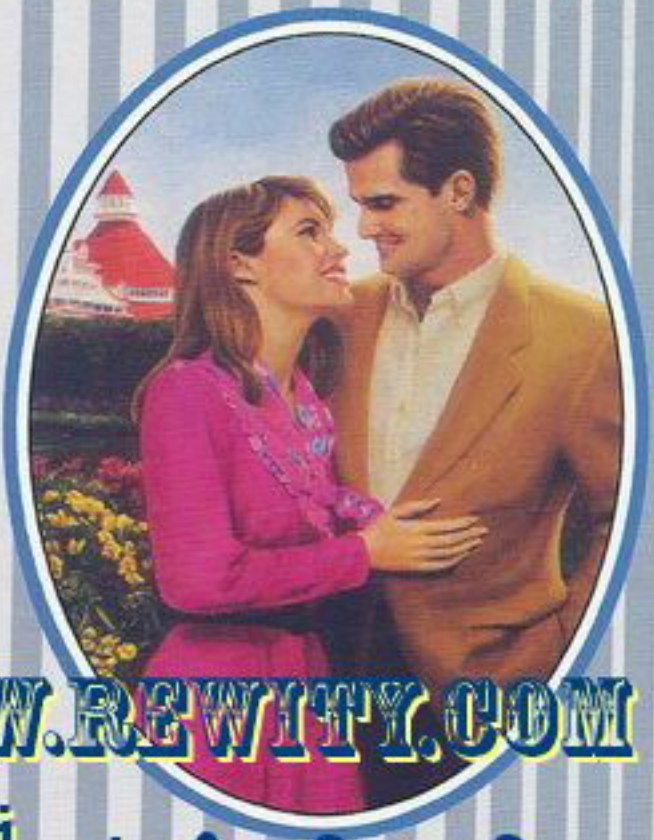

WWW.REWITY.COM

مرمورية

Charlotte Craven

أُحبُّكَ صَمْتًا

الأصليَّة

روايات عبير

«أحبُّك صَمْتًا»

بدافع من الوفاء إلى عمتها -التي ربَّتْها صغيرة بعد وفاة والديْها- ذهبتْ «جين» إلى «الدوق»؛ لتعتذر إليه نيابة عن «لارين» ابنة عمتها عن عَدم الزواج به... لم يتأثرْ «الدوق» ولم يَثُر بل طلب إليها أن تكونَ رفيقةَ ابنه الصغير «تريستاو» الذي نجا من حادثة بصعوبة وتركتْ له إعاقة في قدمه... وافقتْ ورحلتْ عن عمتها وابنة عمتها إلى «الدوق» وابنه، لكنَّ حدث ما لم يكن في الحُسْبان إذ طرقَ حب «الدوق» أبوابَ قلبها.. فكان حبًّا بلا أمل... خصوصًا أنها لم تكن ذات جمال أو مال.. فدفنت حبَّها في صدرها.. شمعة تكوي الضلوع ولم تتأوّه حتى... بل ظلَّت صامتة... لا تدرى ماذا يُخبئ لها القدر.

ثمن النسخة

لبنان	3000 ل.
سوريا	100 ل.
الأردن	1.5 دينار
السعودية	10 ريال
الكويت	750 فلس
الإمارات	10 دراهم
البحرين	1 دينار
قطر	10 ريال
مسقط	1 ريال
مصر	6 جنيه
المغرب	30 درهم
ليبيا	5 دينار
تونس	2.5 دينار
اليمن	300 ريال

ISBN 995338051 -1
9 789953 380513

العنوان الأصلي لهذه الرواية
Body Check

تأليف
Charlotte Craven

الغلاف بريشة الفنان
Patrice Gordon

WWW.REWITY.COM
مـــرمـــوريـــة

أحبك صمتًا

(716)

الناشر
المركز الدولي للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

الإدارة العامة والتوزيع
تليفون: 666 212 9 961 00 – فاكس: 665 212 9 961 00
ص.ب 374 جونيه – لبنان
Email: info@inter-press.org www.inter-press.org

وكلاء التوزيع
دار ميوزيك – دار البشير – دار إي بي سي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع منعًا باتًا نقل أي جزء أو قسم من هذا الكتاب وبأية وسيلة مرئية أو صوتية... إلخ
إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

- 1 -

البحر شديد الزرقة كالياقوت المذاب تحت شمس لاهبة راحت تلقي بأشعتها المذهبة على الشاطئ. و«جين داير» تقف في الشرفة، تشد بأصابعها على السياج، تتنشق نفسًا عميقًا من الهواء الدافئ المعطر برائحة البحر والمرجان والنباتات الطالعة هنا وهناك. إنها فتاة إنجليزية شابة وتشعر بسعادة يشوبها الكدر حين تتأمل هذا المشهد، لأنها اعتادت مناظر بلدها الهادئة المتناسقة. وجال نظرها في اتجاه الصخور الضخمة التي تلمع على الشاطئ، ثم ارتفع نحو القمم المكسوة بأشواك برية مزهرة وبأشجار النخيل القصيرة، وامتدّ بعدئذ صوب مدينة «بورتو دي زاتو». ولـ «بورتو دي زاتو» مكانتها في التاريخ؛ بسبب حادث اختطاف تعرضت له بعض الراهبات على أيدي القراصنة. فقد تمّ دفع الفدية من الياقوت الأحمر الذي يملكه رجل يدعى «بيدرو المنذور دي روس زاتو» وهو لورد يملك مئات الألوف من الهكتارات في «البرازيل»، منها هذا المرفأ وما يحيط به من قرى وبلدات. «جين» اطلعت على هذه القصة في الدليل السياحي الذي اشترته من مطار «الريو». بدا لها أن القصة مبالغ فيها، فالكتاب يذكر أن الدوق «بيدرو» كان على علاقة عاطفية مع فتاة برازيلية اضطرت إلى دخول دير «اليمامة النائحة» بعدما انتهت علاقتها بـ«الدوق» إلى الانفصال. اغرورقت عينا «جين» بالدموع وهي تتأمل ما حولها من جمال. وهي التي اعتادت أن تضبط انفعالاتها منذ صغرها. فقدت والديها ولم يعد لها من يعطف عليها سوى عمة هي

كل ما بقي لها من العائلة. إنها تتردد في أن تفتح قلبها للناس أو حتى للأشياء. لقد أدركت أن الناس يتقبلون الواثقين بأنفسهم فقط ويرفضون الضعفاء. كما أيقنت أن الناس لا يميلون إلا إلى الذين يتمتعون بالجمال والإثارة. فكيف الحال معها وهي الفقيرة العادية المظهر؟ حولت نظرها عن الرمال المتلألئة تحت أشعة الشمس، واستقر على أشجار النخيل الخضراء المذهبة، تلمع أوراقها كالزمرد. آه لو تستطيع أن تحب هذا المكان، لكن من أين لها الجرأة! جاءت إلى «البرازيل»؛ لتحضر زواج ابنة عمتها «لارين»، على أن تعود بعد ذلك إلى «إنجلترا» مع والدة العروس «مادج ديسموند»، التي أصبحت «جين» بالنسبة إليها الرفيقة والسكرتيرة ومديرة أعمالها. وكانت العمة تحتاج إلى «جين» لتضبط لها كل شيء؛ لأن «مادج» كانت ممثلة هزلية، طائشة، غريبة الأطوار، لم تتمكن يومًا من أن تصبح نجمة لامعة، على الرغم من أنها تمثّل في أفلام تؤدي فيها أدوارًا لسيدات من المجتمع الراقي، الذي تنتمي إليه. دخلت «مادج» متهادية إلى الغرفة ورأت «جين» تتأمل في الطبيعة فبادرتها قائلة:

– إذا كنت تحلمين بفارس أسمر فأنصحك بأن تتخلي عن هذا الحلم وألا تنجرفي إلى المظاهر. فالبرازيليون ليسوا عاطفيين كما يحاولون أن يظهروا.

استدارت «جين» وتطلعت إلى عمتها وقرأت في عينيها ما جعلها تدرك أن «مادج» تهيئ لمعركة. عضّت «مادج» على شفتها العريضة فأصبحت بلون الأرجوان والتقطت معطفها الحريري بخفة كما

يلتقط الهر شيئًا ما، لكن ذلك لم يخف «جين»؛ فهي تعرف أنها ليست جبانة تمامًا مثل كل الذين يشعرون بأنهم وحيدون ومنبوذون. وبدأت «جين» تتوقع أن تنفجر الكلمات من فم «مادج» في أية لحظة. ولم تحاول أن تتكلم أو تبدو منها أية حركة تدل على أنها مستاءة أو منزعجة. ذلك لأن «جين» تحفظ لعمتها العرفان بالجميل، فهي التي أمنت لها منزلا وأرسلتها إلى المدرسة ثم وظفتها عندها بدلا من أن تريح نفسها من كل هذا العذاب وتضعها في أحد دور رعاية الأيتام.

– «جين»، تعالي إلى هنا. أريد أن أطلعك على أمر ولا أحب أن يسمع كل نزلاء الفندق ما سأقوله. تركت «جين» الشرفة ودخلت إلى الغرفة وقالت:

– ماذا عندك؟ هل حدث شيء؟ ما عادت تناديها يا عمتي تنفيذًا لأوامرها. فهي تعتبر أن هذا اللقب يظهرها متقدمة في السن ويحط من قدرها كممثلة. وبحركة غاضبة خلعت «مادج» معطفها الحريري، وبحثت في حقيبتها عن علبة السجائر ثم وقفت تنتظر أن تشعل لها «جين» سيجارة. وبعدما أخذت «مادج» سحبة عميقة تطلعت إلى «جين» بغضب وقالت:

– نعم، حدث شيء، لن يكون هناك عرس، ابنتي لن تتزوج «الدوق». كان الخبر مفاجئًا تمامًا لـ«جين» ولذلك ارتمت على طرف المقعد الكبير وأخذت تحدّق إلى عمتها: «كيف يمكن أن يكون الخبر صحيحًا مع أن «لارين» كانت متحمسة للزواج برجل ثري، ناضج ومن طبقة النبلاء؟» وقالت «جين»:

– لا أظن أن الأمر سيئ إلى هذا الحدّ. وقد تكون القضية ناتجة من شجار بسيط سببه التوتر الذي لابدّ منه قبل الزواج. وأعتقد أن الأمور ستعود لتنتظم من جديد. قاطعتها «مادج» بحدّة:

– «لارين»، إنها من أجمل النساء وأغناهن في «إنجلترا». ترك لها والدها ثروة كبيرة. وإن بدت متواضعة بالنسبة إلى ثروة «الدوق»، كثيرون طلبوا يدها وعندما اختارت هذا البرازيلي لم أعارض على الرغم من أنني علمت أن لـ «الدوق» ابنًا سيرث اللقب. وأنت تعرفين أن «لارين» عنيدة تتمسك بالقرارات التي تتخذها. وكانت تعتبر أنها و«الدوق» سيكونان زوجين مثاليين، حتى أقنعتني بأن يتم الزواج بسرعة وببساطة دون مراسيم واحتفالات. ظننت أن «الدوق» يفضّل ذلك لأنه أرمل، ولكنني علمتُ فيما بعد أنه لم يتزوج، وأن ابنه «تريستاو» هو ثمرة علاقة عاطفية قديمة، وأنه يريد الزواج بابنتي؛ كي تكون أمًا لهذا الولد الذي علمت أنه معاق، بعدما أصيب في حادث سيارة وكان عمره ثلاث سنوات. أطفأت «مادج» سيجارتها بحركة عصبية وأضافت:

– طبعًا الولد ليس مسؤولا عن عاهته، والخطأ الذي ارتكبه «الدوق» في شبابه يمكن أن يكون مغفورًا، لكن ما لا يمكن أن أسمح به هو أن تصبح ابنتي «لارين» سجينة في قصره، بعيدة عن الحياة المرحة التي تحبها؛ لتصبح أمًا لابنه غير الشرعي. طلبت من «لارين» أن ترفض هذا الزواج لكنها خائفة من مصارحته بأنها لن تتزوجه. سمعت «جين» أقوال عمتها وهي في ذهول. كانت هي أيضًا تعتقد أن «الدوق» أرمل وهو الآن يعترف بأنه والد لابن غير شرعي. وهذا بالنسبة إلى «جين»

دليل انحراف خصوصًا وأن «الدوق» لاتينيّ. ذلك أنه من المعروف أن النساء في «أمريكا اللاتينية» منضبطات والرجال يعاملونهن باحترام.

قالت «جين» بصوت منخفض:

– لابد من أن «لارين» اختبرت مزاجه الصعب قبل أن تخطبه. فمن الطبيعي أن يكون هذا الثري البرازيلي على شيء من العجرفة. هل هي متأكدة أنها لم تعد تحبه؟ تطلعت إليها «مادج» بسخرية وقالت بحدة:

– أنت لا شك تقرئين القصص العاطفية. إننا نتحدث عن الزواج، عن الشراكة العملية الممكنة بين شخصين يجب أن يكونا زوجًا وزوجة وليس سيدًا وأمة. ومنذ البداية أفهمت «لارين» أن للرجل في «أمريكا اللاتينية» نظرة متعالية إلى الزواج، تختلف عن نظرة الرجل الإنجليزي المتفهّم، اللطيف، الهادئ. ولكنها تجاهلت نصيحتي وهي تنتظر مني أن أخرجها من هذا المأزق الحرج بشكل مسرحي كأنها تتضرّع إلى الله.

– رأيي أن «الدوق» لن يتخلى عن «لارين» بسهولة. فالخطبة بالنسبة إليه خطوة مهمة وجادة يعتبرها شبه زواج. ولذلك ليس من السهل فسخها.

– إنني أفضل أن أتوارى أنا و «لارين» عن الأنظار قبل أن يعرف «الدوق» أن الزواج لن يتم. سبق لـ«جين» أن سمعت من عمتها الكثير من التعابير الغريبة والكلمات المدهشة. لكنها الآن تجاوزت كل حدود.

قالت «جين» مستغربة:

www.rewity.com

– لا يمكن مواجهة هذا الموضوع الخطير بالتهرّب، بل يجب أن تقابلي «الدوق» وتصارحيه، فهو، على كلّ حال، رجل ذو أصل نبيل وله مركز في «البرازيل». ولا يحق لـ«لارين» أن تتصرف معه كما تصرفت مع «بيلي».

– أعترف بأنها لم تتصرف جيدًا مع «بيلي». وعندما نعود إلى «إنجلترا» سأحاول إقناعها بأن تمنحه فرصة أخرى. إنه شاب لطيف وقدير وشريف والمجال فسيح أمامه لأن يصبح في المستقبل ذا شأن. أمسكت «مادج» رأسها بيديها وحدّقت إلى «جين» بشيء من الحنان وقالت:

– عاملتك معاملة جيدة، أليس كذلك؟ كانت نبرة صوتها باردة وحادة كالألماس الذي يلمع في معصميها. ظلت «جين» جامدة كالتمثال. ولم تتحرّك خصلة واحدة من شعرها الأسود الناعم وأجابت بهدوء:

– نعم، إنني أقر بذلك.

– و «لارين» ألم تعاملك مثل أختها تقريبًا؟

– تقريبًا، نعم.

– تفهمين إذًا ماذا قصدت؟

– ليس تمامًا. لم تستطع أن تتصوّر أن «مادج» تريدها أن تتولى هي إطلاع «الدوق» على هذا النبإ المثير، أن تقول له بكل بساطة: إن «لارين» ترفض الزواج بك يا حضرة «الدوق». انتفضت «جين» وقالت بعصبية:

– لا، لن أتولى هذه المهمة، لا يمكنك أن تطلبي مني ذلك، إنك تستغلين طيبتي وإخلاصي واحترامي، إنني مدينة لكِ بالكثير. فقد أمنت لي

البيت والعمل، ولكنني لست مستعدة لأن أتحمل ردة فعل «الدوق» على القرار الذي اتخذته «لارين». بل عليها أن تواجه مشكلتها بنفسها. فجأة تبدّلت النظرة في عيني «مادج». صارت مزيجًا من الحنان والسحر والاستمالة، واقتربت من ابنة أخيها وضمت يديها بشدة وقالت:

– يا عزيزتي. إنك الفتاة الوحيدة القادرة على إبلاغه النبأ دون أن تتخلي عن براءة الطفولة. لايمكن لأي إنسان أن يغضب منك وهو ينظر إلى هاتين العينين الصافيتين. لقد قمت بعدة عمليات من هذا النوع في خلال السنوات الأربع التي عملت فيها معي، ونجحت. وأنا متأكدة أنك ستفعلين الشيء نفسه مع «الدوق». إنك تحبين «لارين» وهي الفتاة الأكثر قربًا منك فيمكنك أن تعتبريها أختًا. وأنا متأكدة أنك لن ترضي بأن تكون مجبرة على الزواج برجل لم تعد تحبه. أجابت «جين» وهي تحاول العودة إلى الواقع:

– يبدو أن «لارين» لم تتأكد حقيقة مشاعرها تجاه «الدوق» قبل أن توافق على عرضه. لكن يمكن القول إن «الدوق» وجد في «لارين» ما لم يجده في أية امرأة أخرى، بالإضافة إلى أن «لارين» ستصبح بعد زواجها «دوقة» محترمة. ماذا تريد أكثر من هذا؟ عادت الحدّة والقسوة إلى عيني «مادج» وهي تقول:

– حذار يا فتاة، ليس لك أحد إلا أنا و «لارين». العالم صحراء قاحلة بالنسبة إلى من ليس عنده منزل أو إنسان يحنو عليه. لقد عشت معنا واعتدت حياتنا، إنك تحبين المسرح وبسهولة أحرمك من كل شيء... كان في الإمكان أن تصبحي ممثلة لو أن شكلك مقبول، اسمعي الآن:

WWW.REWAYAT.COM

أتيحت أمامك الفرصة لكي تمثلي الدور الذي أطلبه منك، وإذا كنت بالفعل تريدين أن تسددي بعض ما فعلته لك من جميل فما عليك إلا أن تقومي بالمهمة التي أطلبها منك.

بدأت تعتمل في نفس «جين» أحاسيس متناقضة. فعلى الرغم من شعورها بالغضب من كل ما قالته عمتها، لم تستطع أن تقاوم شعور المتعة والإعجاب بهذه الممثلة القديرة التي تجيد أداء دورها، إن «مادج» إمرأة مشاكسة بطبيعتها وهي في هذه اللحظة تناضل، ولو بطريقة ملتوية من أجل ابنتها الوحيدة المدللة. و «مادج» تدرك أنها إذا واجهت «الدوق» بنفسها، وهو الرجل القاسي، سيؤدي ذلك إلى اصطدام الشخصيتين وإلى تصلب في مواقفهما. أمّا «جين» فبطبيعتها الهادئة ووجهها الطفولي وبراءة عينيها تستطيع أن تؤدي المهمة دون أن تضطر إلى خوض معركة مع «الدوق». أفاقت «جين» من تأملاتها على صوت «مادج» تقول لها:

– اذهبي وقابلي «الدوق» من أجل «لارين» ومن أجلي أيضا. لن تخسري شيئًا. بل ستربحين معطفًا من الفرو أشتريه لك حالما نعود إلى «لندن».

– أرجوك يا «مادج»، لا تحاولي رشوتي. أنا لا أحب هذا الأسلوب في التعامل. ثم هل هي متأكدة أنها لم تعد تريد «الدوق»؟ ألا يمكن أن يكون قرارها نتيجة فورة غضب. يبدو أن «جين» أيضًا تخشى ردة فعل «الدوق» إن هو اطلع على النبإ، إنها لا تعرف «الدوق» وبدأت تتخيله، إنه ماكر، خبيث، قاسٍ، يتصيد النساء ثم يتخلى عنهن بعد أن ينال مأربه، تصوّرت أنه سيوبّخها وسيطردها، وهي السكرتيرة

التافهة، لأنها تجرأت وأخبرته بأن «لارين» لم تعد تريده، ووجدت نفسها تسأل عمتها:

– وهل هو بالفعل إنسان مخيف؟ ومن غير أن تنتظر الجواب أضافت:

– على أية حال، لو كانت «لارين» مغرمة به لما رضيت بأن تتخلى عنه بهذه السهولة. حدجتها «مادج» بنظرة ازدراء وقالت:

– الحب نوع من العبث يستهوي الخادمات والفتيات التافهات. و«لارين» لا تأبه لهذه الحماقات. ولو أنني كنت أعرف أن حياتها ستكون سعيدة مع «الدوق» لما أقنعتها بفسخ الخطبة. الرجل في «أمريكا اللاتينية» يعتبر أن مكان المرأة الطبيعي هو البيت، في حين أنه يسمح لنفسه بأن يمارس كل أنواع اللهو والمرح. و «لارين» لا يمكن أن تكون تلك الزوجة. إنها تطمح إلى الزواج برجل ثري يسمح لها بالتمتع ببعض الامتيازات. وهنا قاطعتها «جين» قائلة:

– ماذا تقصدين بالامتيازات، هل تعنين المغامرات العاطفية؟

– «لارين» تستهوي الرجال. وامرأة من هذا النوع حرام أن تتحول إلى مجرد لوحة على جدار في قصر أو قطعة أثرية في متحف. إن «لارين» مسكينة ولا تستطيع أن تتحمل نتائج لقائها بـ«الدوق» مرّة أخرى.

توقفت «مادج» قليلا ثم تقدمت نحو «جين» وقالت:

– «لارين» وأنا سنغادر «البرازيل» مساء اليوم، أما أنت فتطلبين موعدًا من «الدوق» لمقابلته. وعندئذ تشرحين له كل شيء. بدأت «جين» تشفق على عمتها. لقد حاولت في البدء استمالتها بالتهديد والوعيد وها هي

WWW.REWAYAT.COM

الآن تعترف بأنها عاجزة عن مواجهة «الدوق»، وبأن «جين» وحدها القادرة على إنقاذها وإنقاذ «لارين» من المأزق. فقالت «جين»:

– «لارين» لن تصبح أبدًا امرأة مسؤولة يا «مادج»؛ لأنك تسمحين لها بالعيش على هواها وبالسخرية من الناس وبعدم احترام مشاعر الآخرين. الناس ليسوا دمى. ابتسمت «مادج» وقالت:

– إنك تلقين خطابًا أخلاقيًا مملا يا صغيرتي. وهذا الأسلوب ينفر الرجال. إنهم يرون فيك الكثير من الفضائل والقليل من السحر. على أية حال لا تخافي. فإن قلب «الدوق» لن يتحطم. إن إنسانًا مثله بلا أخلاق لا يمكن أن يكون عاطفيًا. سيغضب بعض الشيء لكنه لن يلبث أن يهادن أعصابه بانكسار عينيك. أشعلت «مادج» سيجارة وتابعت:

– تصوري يا «جين» كم كانت «لارين» حزينة حين أبلغها «الدوق» بكل وقاحة أن ابنه المعاق «تريستاو» يحتل المرتبة الأولى في قلبه وأن كل ما هو مطلوب منها أن تكون أمًا لهذا الولد المعاق. لقد توسلت إليّ «لارين» لإنقاذها من هذه الورطة، لأنها ترفض أن تعيش كل حياتها سجينة القصر مع ولد معاق ليس ابنها. توقفت فجأة لتأخذ سحبة من السيجارة ثم قالت:

– أنا واثقة يا «جين» بأنك ستساعديني. أنت شجاعة وقادرة على مواجهة هذا الوضع، وثقي بأنني لن أنسى عملك هذا وسأكافئك.

– لا أريد مكافأة. إنني أوافق على مقابلة «الدوق»؛ لأنه ربما حدّث ابنه عن «لارين». ومن حق هذا الفتى أن يطلع على الحقيقة كلها.

وإذا لم أتمكن من مقابلة «الدوق» لسبب ما فسأجعله يطلع على خبر فسخ الخطبة من الصحف بعدما تكونين أنت و «لارين» قد غادرتما «البرازيل».

– حسنًا. لا أريد تحمّل البلبلة التي ستعقب معرفة «الدوق» بالأمر. إن أبناء «أمريكا اللاتينية» مختلفون عنا تمامًا. إنهم يعتبرون الزواج أمرًا مقدسًا. من الآن فصاعدًا، سأنصح «لارين» بألا تعاشر غير «الأنجلوساكسون». ارتدت «مادج» معطفها وهمت بالذهاب. ثم التفتت إلى «جين» وقالت:

– أتمنّى ألا تتراجعي عن قرارك. كما أرجوك ألا تكوني قاسية على «لارين» عندما تتحدثين عنها مع البرازيليين. أقفلت «مادج» الباب وراءها تاركة «جين» وحيدة إلا من القلق والشعور بالرهبة من مواجهة «الدوق» الخطير الذي لا تعرف عنه شيئًا سوى ما أطلعتها عليه عمتها.

- 2 -

استأجرت «جين» سيارة وطلبت من السائق أن يذهب بها إلى مقرّ «الدوق» على شاطئ البحر المعروف بـ «فيلا الصخرة». ظل السائق صامتًا طوال الطريق المتعرّجة، واكتفى بقيادة السيارة بمهارة. كان البحر الساحر يظهر بين الحين والآخر، كذلك القرى المبعثرة في محاذاة الشواطئ الصخرية العالية المحاطة بالأشجار ذات الأوراق الملونة. على الشاطئ شاهدت «جين» زوارق الصيادين راسية على الرمال، مشدودة

www.rewity.com

الأشرعة تنتظر أن يفرغ الصيادون مما اصطادوا من أسماك لنقلها إلى المستودعات. المنازل الصغيرة كانت مطلية بالكلس، شرفاتها من الخشب المخرم وهي قائمة وسط حقول الموز الأخضر وقصب السكّر وسنابل القمح التي لوتها الريح.

كان المظهر حيًّا وبدائيًّا كأنه لوحات من العصور الغابرة. وعلى الرغم من أن «جين» كانت مستعجلة للوصول إلى «الفيلا» وإنهاء مهمتها، لم تستطع أن تمنع نفسها من التمتع بكل ما تراه. سبق لها أن سافرت خارج «إنجلترا» إلى «باريس» و «نيويورك»، لكنها المرّة الأولى التي تصطحبها عمتها إلى «بورتو دي زاتو»، التي تعتبر من الأماكن التي لم تشوهها الحضارة، فلا ناطحات سحاب من الزجاج والأسمنت، ولا ازدحام وضجيج وعجيج ولا هواء ملوثًا بدخان المازوت ولا قاذورات وروائح نتنة. ومن نوافذ السيارة المفتوحة تتسرّب رائحة البحر ويفوح أريج الأرض فاكهة وبنًّا وسكرًا وقمحًا وذرة.

راقبت «جين» عصفورًا جناحاه شقراوان يحلق دائمًا إلى أعلى، يبني عشه أينما كان في هذا الفضاء الساحر، حيث يعيش العقاب على رؤوس الجبال العالية. شعرت «جين» بأنها باتت أسيرة هذا المكان الساحر، كم هو رائع هذا الإحساس بالحرية... الحرية؟ وعادت الذاكرة بـ«جين» إلى الوراء. وأدركت أنها مدينة بالكثير للذين اهتموا بها بعد موت والديها. صحيح أنها ثارت على عمتها عندما طلبت منها أن تنفّذ لها مهمة معينة لكنها مع ذلك عادت ورضخت، لأنها فتاة فقيرة، وعليها أن تفي الدين المفروض عليها من المال لعمتها كلما

استطاعت إلى ذلك سبيلا.

ابنة عمتها «لارين» تملك من المال ما يجعلها قادرة على أن تكون مستقلة. لكن «جين» المليئة بكل معاني المسؤولية تشعر دائمًا بأنها يتيمة وبأنها مرتبطة رغمًا عنها بالآخرين. إنها تعرف أن في استطاعتها أن تترك «مادج» وأن تبحث عن عمل في مكان آخر، لكن عاطفتها ووفاءها كانا يشدانها إلى البقاء. على أية حال فالحياة عند «مادج» ليست مملة فهي ترافق عمتها إلى التمارين على المسرحيات الجديدة وتشاهد الفنانين والصحافيين والكتّاب الذين يترددون دائمًا على بيت «مادج» في حيّ «وستمنستر» الراقي في «لندن».

هذه المتعة هي كل ما تملك «جين» ومن أجل المحافظة عليها قبلت أن تذهب إلى «فيلا الصخرة» وبأن تقدم على مغامرة مقابلة «الدوق» لتبليغه بأن «لارين» لا تريده زوجًا لها. في حقيبة «جين» صندوق صغير بداخله الهدايا الثمينة التي قدمها «الدوق» إلى «لارين» يوم الخطبة. إنها مجموعة من الأساور والأقراط من الألماس، وخاتم سوليتير معلق بسلسلة. لقد أرادت «لارين» أن تحتفظ بهذه المجوهرات معتبرة أن «الدوق» يملك الكثير منها لكن أمها صرخت في وجهها بحدّة قائلة:

– الحلي يجب أن تعود. عليك أن تتصرفي بلباقة كي لا تزيدي من ثورة «الدوق»، يكفينا ما سيقوله وما سيفعله عندما يبلغه قرارك.

أفاقت «جين» من تأملاتها بينما كانت السيارة تدخل منعطفًا يؤدي إلى ممر يحيط به من الجانبين عمودان حجريان ضخمان وعدد من الأشجار الاستوائية ذات الجذوع الزرقاء، تلتقي فوق الطريق بشكل قنطرة وارفة

www.rewity.com

الظلال.

دخلت السيارة المنطقة التابعة لـ«الدوق». وهنا بدأت «جين» تحس بهول الموقف. وندمت لأنها وافقت على المجيء. كان عليها أن ترفض القيام بهذه المهمة. لكن ماذا تفعل بعاطفتها؟ انحنت نصف انحناءة إلى الأمام كأنها تريد أن تطرق على الزجاج الذي يفصلها عن السائق وكانت تريد أن تطلب منه العودة من حيث جاء، لكن الأوان كان قد فات، إذ وصلت السيارة إلى الساحة الكبيرة التابعة لـ«فيلا الصخرة».

فوجئت «جين» بما شاهدت. وخاب ظنها. كانت تتوقع أن ترى مكانًا جميلا متناسقًا يتفق مع ثراء «الدوق»، فإذا بها تجد نفسها أمام بناء غريب يغلب عليه طابع البشاعة، وتذكّرت ما عرفته عن «زاتو»، إنها تنحدر من عصور قديمة. وتعود إلى تاريخ اكتشاف «البرازيل» على أيدي البرتغاليين، ويوم كان النبلاء منهم يذهبون بسفنهم الشراعية باحثين عن عالم جديد ويعمدون في الوقت نفسه إلى الاستيلاء على ثروات الأراضي التي يكتشفونها ليعودوا بها إلى وطنهم «البرتغال»، التي كانت في تلك الأيام تعيش في عصرها الذهبي. يبدو أن «جين» كانت قد طرقت على زجاج السيارة عندما انحنت، دون أن تنتبه. فإذا بالسائق يسألها:

– ماذا تريدين يا سيدتي؟

– هل أنت متأكد أن «الدوق» يعيش هنا؟

– هنا «فيلا الصخرة». إن حضرة «الدوق» يملك منازل أخرى بالطبع. في مناطق أخرى من «البرازيل». وهو يأتي إلى هنا للاهتمام بالمزروعات.

لكن الجميع يعرفون أن منزله المفضل قائم في الأرض التي زرع فيها البن. والمنزل هناك كبير جدًا وأجمل من هذا بكثير، وهو يدعى: منزل «الصقر الذهبي». إنه اسم أول سفينة عبرت مياه «أمريكا الجنوبية» بقيادة أحد أسلاف «الدوق» الذي استحق اسم السفينة نفسها.

ترددت «جين» في الدخول إلى «فيلا الصخرة». لكن السائق نزل من السيارة وفتح لها الباب. وهنا أدركت أن التراجع لم يعد ممكنًا فتسلحت بالشجاعة ونزلت من السيارة وطلبت من السائق أن ينتظرها.

ارتقت السلالم المؤدية إلى الباب الكبير المنحوت، يتدلى من أحد جوانبه جرس من الطراز القديم، وشدّت الحبل فصدر عن الجرس صوت قوي، ارتعشت معه «جين» بعدما أدركت أن عليها الاستسلام للأمر الواقع.

انفتح الباب وظهر الخادم يرتدي بذلة سوداء وهو ينظر إلى «جين» بلامبالاة. ابتلعت «جين» ريقها وسحبت رسالة «مادج» من حقيبتها وقالت للخادم:

– جئت بطلب من السيدة «ديسموند» ناقلة هذه الرسالة إلى «الدوق». وأتمنّى أن أتمكن من مقابلته لأن هناك أمرًا مهمًا أحب أن أطلعه عليه. تسلم الخادم الرسالة ثم دعاها إلى الدخول وانصرف هو لإخبار «الدوق». أخذت «جين» تتأمل «الفيلا» من الداخل. فالأرض مصنوعة من الخشب المرصع. والنوافذ من الزجاج الملوّن بألوان مختلفة على الشكل القوطي الذي يعكس روعة الغروب. وتبين لـ«جين» أن تصميم هذا المنزل مقتبس من الكنائس البرتغالية. فالنور المائل الذي ينعكس على الأرضية الخشبية يؤكد ذلك، إضافة إلى الأثاث المنحوت من

www.rewity.com

الخشب الغامق والثريات والنحاسيات ذات البريق الخافت.

تطلعت «جين» إلى المرآة. كانت شاحبة الوجه ذابلة العينين. نهضت وأشاحت وجهها عن المرآة، ماذا لو كان «الدوق» يشبه هذا المكان المنفر الكئيب. إذا كان الأمر كذلك فإن «لارين» على حقّ. عاد الخادم بعد قليل ليبلغها أن «الدوق» مستعد لمقابلتها، ثم دعاها لترافقه إلى الطابق الثاني حيث توقفا أمام باب فتحه الخادم. وابتعد مفسحًا لها مجال الدخول إلى غرفة واسعة ذات أثاث قاتم وليس فيها مقعد مريح.

وقفت «جين» في وسط الغرفة تسمع في شيء من الخوف دقات الساعة الزجاجية المثبّتة في الحائط لقد مضت ساعتان منذ أن تركت الفندق لتأتي إلى «فيلا الصخرة». وها هي تنتظر «الدوق» منذ ربع ساعة. وأدركت أنها لن تنتهي من مهمتها إلا بعد أن تستقل الطائرة عائدة إلى «الريو» ومن هناك إلى «لندن». وبينما كانت «جين» مستغرقة في تأملاتها سمعت الباب يفتح، ثم أطلّ رجل طويل القامة، ثابت الخطوة، وينتعل حذاء من الجلد اللماع ويرتدي بذلة الفرسان البنية اللون التي أبرزت قامته الرياضية، وتحتها قميص أبيض من القماش الناعم يغطي صدره الواسع وكتفيه العريضتين. تفرّست «جين» في «الدوق» وفهمت على الفور سبب إعجاب «لارين» به. ثم ارتعدت «جين» إذ فكرت في أن زوجة لمثل هذا الرجل ستضطر إلى الخضوع لنزواته.

منذ وقع نظر «جين» على «الدوق» عرفت فورًا إلى أيّ نوع من الرجال ينتمي، رجل مهيب، وشخصية جذابة تبدو عليها كل علامات النبل والأصالة. ومع ذلك شعرت بأنها لابدّ من أن تتلقى صفعة على وجهها

إن هي أطلعته على ما حدث. لم تكن عينا «الدوق» تشبهان في شيء عيون أبناء «أمريكا اللاتينية»، الحارة، الودودة، المتسامحة. كانتا تلمعان كعيني أسد متربص، وفي غطرسة وقحة أخذ يدور حول «جين» وينظر إليها من كل زاوية قائلا:

– تقول السيدة «ديسموند» في رسالتها إنك ابنة شقيقها ومديرة أعمالها. إنك لا تشبهينها ولا تشبهين ابنتها. عيناك خضراوان لهما لون عشب البراري البعيدة. كانت «جين» تحدّق إليه ونبض قلبها يتلاحق. إنه إنسان غريب ورهيب فرض سيطرته عليها منذ النظرة الأولى.

– والآن يا عزيزتي، ألا تريدين أن تتكلمي أم أنك تفضلين أن أقرأ أفكارك لأعرف سبب مجيئك؟ هذا ليس عسيرًا على فتاة ساحرة مثلك.

– صحيح، لا تنقصك الوقاحة.

– هل جئت إلى هنا لتقولي لي هذا؟ حدجته «جين» بنظرة خاطفة حابسة أنفاسها، لابد من أنه بدأ يدرك الحقيقة. ولاحظ هو مدى تأثير كلماته فيها، وكأنه أراد أن يخضعها نهائيًا، فأضاف:

– اجلسي قبل أن تنهاري فأضطرّ إلى حملك. ماذا حدث؟ لماذا ترتجفين ألم تتناولي أيّ طعام طوال النهار... لم أرَ في حياتي وجهًا شاحبًا مثل هذا الوجه ولا جسمًا نحيلا مثل هذا الجسم. هل تحبسك السيدة «ديسموند» ولا تدعك تخرجين إلى النور؟ من أنت كأنك لست من هذا العالم، كأنك آتية من كوكب آخر، لا أعرف شيئًا عن سكانه. لم تعد «جين» تتحمل وبعصبية عفوية قالت:

www.rewity.com

– أنا قريبة السيدة «ديسموند» لكنّني فقيرة. أنا فتاة متواضعة كبرت وهي تلتقط من فضلات «لارين»... الكتب المهترئة، والدمى المحطمة، وحبات العقود المنثورة والأقلام المكسرة. وكأن ذلك لا يكفي، لأنني أحاول الآن أن أقوم بالمهمة التي كان يجب أن تقوم بها ابنة عمتي الفاتنة. فتحت «جين» حقيبة يدها وأخرجت منها الصندوق الجلدي الأحمر وقدمته إلى «الدوق» قائلة:

– «لارين» تعيد إليك هذا، يا سيدي «الدوق». اكتشفت أنها غير قادرة على الاستمرار في الخطبة. وطلبت مني إبلاغك أسفها، فهي تحنّ إلى وطنها ولا يمكنها أن تعيش معك في «البرازيل». أرجوك أن تستعيد هذه المجوهرات، كلها هنا داخل الصندوق. ألقى «الدوق» نظرة باهتة إلى الصندوق المزين غطاؤه بالتاج الدوقي وقال:

– أرجوك أن تضعي الصندوق على الطاولة.

– إنني آسفة. لم تكن لدى «لارين» الجرأة الكافية لتطلعك على قرارها بنفسها. أجابها «الدوق» بلهجة جافة:

– يبدو أنك أقدر منها، أو أنك وافقت على المجيء نتيجة تهديدات العمة وخوفًا من فقدانك الوظيفة إن لم تنفذي مطالب أقاربك الأغنياء.

– أنا لست فخورة بما أفعله، لكن لابد من أن يتولى أحد أمر إعلامك بفسخ الخطبة.

– جئت إذن تحملين إليّ النبأ وتخافين أن يتحطم قلبي؟

– لا، قررت «لارين» فسخ الخطبة، لأنها شعرت بأنك تريد زواجًا يؤمن لك مصلحتك. أنا متأكدة أنك تفهم ماذا أقصد.

– هل تريدين القول إنني ما أحببتها إنما قصدت الزواج من أجل ابني فقط؟ ولم لا، «تريستاو» بات جزءًا من حياتي منذ ست سنوات، وأنا أعرف أن الآنسة «لارين» ليست مستعدة للعيش مع هذا الولد غير القادر على الركض أو اللهو مثل الآخرين. تصلّب وجهه وضغط بيديه على أصابعه وأضاف:

– لعنة الله عليها، إنها تشبه اللواتي لا يهمهن من الحياة سوى تذوق الطيبات غير ملتفتات إلى الذين حكم عليهم القدر بأن يلتقطوا فتات الموائد. إنني أستغرب كيف أرجعت المجوهرات. نظرت إليه «جين» باستغراب ولمحت ابتسامة وقحة على شفتيه وقال:

– تنظرين إليّ وكأن في عينيك سؤالا كبيرًا. هل تعتقدين أنني أحمق لأنني لم أمتحن «لارين» قبل أن أختارها؟ أجابت «جين» بهدوء:

– وهل كنت تمتحنها عندما أخبرتها بأنك تتزوج بها من أجل ابنك؟ لقد كنت تتوقع أن تتجاوب معك «لارين» بسرعة وتوافق على عرضك متصورًا أنها كأية امرأة من بلادك يستجيب قلبها للحنان. لقد تصرفت «لارين» تصرفًا خاطئًا عندما تركتك وأنا آسفة جدًا. قرع «الدوق» الجرس وقال:

– قمت برحلة طويلة قبل أن تصلي إلى هنا وتحدثت طويلا عن الهدف من زيارتك. حان لك أن تتناولي شيئًا. أتفضلين الشاي أم القهوة؟ إننا نزرع الاثنين معًا في «البرازيل» ولكل منهما قيمته... على فكرة، هل تعجبك «البرازيل»؟

– لم تتسنَّ لي مشاهدة الكثير من بلادك، لكنها تبدو غنية بالألوان.

www.rewity.com

– تقصدين أنها تختلف كثيرًا عن «إنجلترا»، أليس كذلك؟

– ليس هناك أيّ تشابه. دخل الخادم الغرفة فطلب منه «الدوق» إحضار القهوة والشاي وبعض الحلوى. عضت «جين» على شفتها السفلى واستعادت ما قاله «الدوق» عن هزالها. ربما ظن أنها تحتاج إلى وجبة سريعة لئلا تموت جوعًا. نهضت «جين» وقالت:

– لا، لن أبقى للعشاء، أمامي رحلة طويلة قبل أن أصل إلى الفندق، استعدادًا للسفر إلى «لندن» لموافاة عمتي.

– لن يستغرق الأمر أكثر من عشر دقائق. يجب أن تتذوقي القهوة البرازيلية. وأشار إلى مقعد قريب من «جين» وقال:

– إن سائقي السيارات في « البرازيل» مشهورون بالسرعة. وأنا أؤكد لك أنك لن تتأخري عن الطائرة. تفضلي بالجلوس يا آنسة، وأريحي أعصابك. رمقته «جين» بنظرة حائرة. لا يبدو عليه التأثر من وقع الخبر. هل يحاول إخفاء مشاعره إرضاء لكبريائه، أم أنه ما أحب «لارين» بالفعل؟ وعلى الرغم من أنها كانت تفضل الذهاب للتحرر من سيطرته وجدت نفسها تلبي رغبته وتجلس في المقعد الذي أشار إليه. وهنا دخل الخادم يحمل صينية ووضعها على الطاولة قرب «جين»، ثم انسحب تاركًا لها مهمة الضيافة. قال «الدوق»:

– سأتناول القهوة.

– هل تريدها مع الحليب (اللبن)؟

– لا، إنني أفضل القهوة سوداء... سوداء مثل نفسي. سكبت «جين» القهوة السوداء في فنجان من الخزف الرقيق مزيّن بعصافير زرقاء

صغيرة، ثم قدمته إلى «الدوق»، واختارت لنفسها فنجان شاي مع الحليب (اللبن).

– أنصحك بأن تأكلي قطعة أو قطعتين من الحلوى. أنا متأكد أنك جائعة، لأن الوقت لم يسمح لك بأن تأكلي ما فيه الكفاية عند الظهر، ألست محقًا يا آنسة؟

– بلى أنت على حق. راحت «جين» تفكر وهي تحتسي الشاي الطيب الطعم، الرجل الذي أمامها ينتمي إلى طبقة اجتماعية رفيعة. إنه متعال، واثق بنفسه، وربما أناني. قد لا يتركها تذهب بسهولة بعدما أطلعته على النبإ. موقفه اللامبالي ربما كان يخفي وراءه شيئًا... فجأة قطع عليها «الدوق» حبل تأملاتها وقال بصوت رقيق:

– منذ متى جئت إلى «البرازيل» يا آنسة؟

– منذ يومين فقط، جئت كي... توقفت عن الكلام وألقت نظرة سريعة إلى وجهه المرتعش ثم أضافت:

– إني آسفة لأن الزواج لن يتم، ولأن ابنك لن يجد له أمًّا. وأنا لن... رفع حاجبيه وقد بدت على وجهه علامات السخرية وأضاف:

– ابنة عمك فتاة جذابة حقًا، ولا شك في أنك تفهمين ماذا يعني للرجل أن يفقد فجأة الشيء الذي كان حتى الأمس القريب حلمه الأكبر.

– لكنك قلت: لعنة الله عليها.

– هذا صحيح يا آنسة. لكنني أعترف بأنني مسؤول نوعًا ما عن خسارة «لارين». لم أستطع أن أقول لها أريدك أن تعيشي معي كي تكوني رفيقة لابني. لكنني أعتقد أنني أستطيع أن أطرح هذا السؤال

www.rewity.com

عليك يا آنسة «جين داير». كان صوته واضحًا وكذلك كلماته مما جعل «جين» حائرة لا تفهم بالفعل ماذا يقصد تعرف «جين» أن الناس في «أمريكا اللاتينية» حريصون على مبادئهم. وشعرت بنوع من الاطمئنان لأن أحدًا لا يمكن أن يصدق أن «الدوق» يحب امرأة مثلها، دميمة وهزيلة. أغمضت عينيها وتساءلت في نفسها: «أمن أجل هذا يطلب مني أن أصبح رفيقة لابنه وليس له؟»

- 3 -

وضعت «جين» فنجان الشاي جانبًا وقالت:

- شكرًا لهذا العرض يا سيدي «الدوق»، لكنني سعيدة جدًا في عملي.

- سعيدة؟ أنت الفتاة الفقيرة التي تعيش من أجل عمتها وابنة عمتها الطائشة، المدللة، الأنانية. أنا أعرف أنها كانت تريد أن تتزوج بي لتصبح «دوقة». التقيتها في «البرتغال» عند بعض الأصدقاء وكان «تريستاو» معي، كانت بالفعل امرأة متألقة وجذابة. حتى «تريستاو» أعجب بها كثيرًا وخيّل إليّ أنها ستكون الزوجة المناسبة. توقف «الدوق» لحظة عن الكلام ثم هز كتفيه وقال:

- أرى أن فكرة العمل عندي لم تعجبك. كنت أظن أنك تريدين التخلص من الحياة التافهة التي تعيشينها مع عمتك وابنتها. أرى أنك تستغربين ما أقول. هل أسأت إليك يا آنسة؟

- نعم، قد لا أحب أحيانًا العمل الذي أقوم به، إلا أنني لا أستسلم

لعرض عابر مهما كانت قيمته.

- أنا أتيح لك فرصة العيش في أجمل منزل على الشاطئ وبرفقة صبي صغير لن يزعجك أبدًا. فهو لا يركض ولا يلهو مثل الذين هم في سنه. ألا تحبين الأولاد يا آنسة؟

- أنا فتاة وأحب الأطفال، لكنني في الوقت نفسه أسيرة ظروف تجعلني مشدودة إلى أقاربي. مع ذلك أجد من الصعب أن أنجذب إلى الخارج، وإن كانت فيه بالنسبة إليّ فرصة العمر. أرجو أن تعذرني يا سيدي «الدوق». وعلى الرغم من كونك خطيب ابنة عمتي فأنت مجهول بالنسبة إليّ، أليس هذا صحيحًا؟ تجاهل «الدوق» الجواب وألقت «جين» نظرة نحو الباب الذي قد يعبر بها إلى الحرية وقالت:

- أعتقد أن الوقت قد حان للرحيل يا سيدي «الدوق». سبق وأطلعتك على موعد سفري. أجابها بحزم:

- لا تسافري. حان لك أن تبدئي حياتك يا «جين داير». حان لك أن تمارسي التحدي. كنت أظن أنك فتاة شجاعة عندما وافقت على أن تتولى إبلاغي النبأ، أرى الآن أن شجاعتك تنهار أمام العرض الذي قدمته إليك والذي يتيح لك أن تعيشي حياتك. ابتعد عنها قليلا وكأنه يحاول أن يبرهن على لامبالاته وقال:

- عودي إلى آل «ديسموند»، يبدو أنك تحبين أن تعيشي على الهامش.

- على الهامش. كان في ود «جين» أن تصفع هذا الوجه الأسمر القاسي، أن تجعل هذا الرجل المتعالي يعرف قسوة العذاب الذي تعانيه كل

www.rewity.com

يوم، كل ليلة، بل كل دقيقة؛ بسبب الآخرين. وقالت له:

– هل تظن أنني سأكون فتاة مختلفة إذا عملت عندك؟

– بل على العكس يا آنستي، إنك كرفيقة لابني ستعرفين معنى المسؤولية التي لم تمارسيها حتى الآن. «تريستاو» صبي شجاع والمطلوب منك السهر عليه والاهتمام به والمحافظة على راحته وسعادته. وهذا المركز أفضل بكثير من مهنة السكرتيرة أو الخادمة التي تقوم بأي عمل يطلب منها. إضافة إلى ذلك سيكون راتبك محترمًا، وسأخصص لك جناحًا خاصًا في «الصقر الذهبي». هل هذا واضح يا آنسة؟

– نعم، إنه واضح. لكن ألا تعتقد أنك تتسرّع بعض الشيء. أنت لا تعرف عني شيئًا سوى أنني قريبة «لارين». صحيح أنني لا أشبهها شكلا، لكن قد أكون أنانية مثلها، وبالتالي قد لا أستطيع تحمّل مسؤولية رعاية ابنك ووريثك.

– هذا صحيح... قال ذلك وتقدم إليها وقبل أن تتمكن من الابتعاد كان قد أمسك بذقنها ورفع وجهها وراح يتفحصها بنظرات لا تخلو من القسوة ثم حدّق إلى عينيها فارتعشت واجتاحها إحساس غريب ينتابها للمرّة الأولى. ثم قال لها:

– تذكرينني بتلك الحورية المخلصة التي عرفتها يومًا. إنك ترفضين باستمرار أن تظهري شخصيتك الحقيقية عند آل«ديسموند» يمكنك أن تقومي بأية خدمة يطلبونها دون أن تهبي قلبك.. لكن مع ولد من عمر ابني كل شيء يختلف. أنت تخافين الحبّ، أليس كذلك؟

– ليس هذا من شأنك. حاولت أن تتملص منه أو على الأقل أن تبعد

نظرها عنه، لكنه كان يمسك بها بقوة. ثم قالت:

– فتاة مثلي بعيدة جدًا عن الوقوع فريسة الحب.

– هل تسمحين لي بأن أسألك عن السبب؟

– أعتقد أنك تراني الآن بوضوح، هذا يجعلك قادرًا على اكتشاف السبب.

– هل تعنين أنك لست جميلة؟

– قالت لي ابنة عمتي «لارين» ذات يوم إنني بطة بشعة.

– أعتقد أنك كنت لا تزالين طفلة عندما قالت لك ذلك؟

– كنت أعرف أنها تقول الحقيقة، إنها ممثلة، وفي المنزل عدّة مرايا يا سيدي.

– يا لك من غبية! لقد ارتضيت لنفسك هذا النعت وانغلقت على نفسك وصرت أسيرة تلك الصورة. ثم هل من الضروري أن تكون مربية ابني عارضة أزياء؟

– أنت قلت إن ابنك أعجب بـ «لارين».

– هل تخشين ألا تنالي إعجاب «تريستاو»؟

– أتوقع أن يخيب أمله عندما يراني وهو الذي يفضّل أن تكون له أم جميلة.

– لماذا لا تجربي الأمر بنفسك وتنتظري ردة فعله؟

– أفضل ألا أفعل. ابتعد «الدوق» قليلا عن «جين» وقال:

– هل أنت مضطرة حقًا إلى العودة على الفور إلى «لندن»؟

– حجزت مكانًا لرحلة منتصف الليل.

www.rewity.com

– يمكن إلغاء الحجز وإرسال برقية إلى عمتك تقولين فيها إنك مريضة وإن الطبيب نصحك بالبقاء في «بورتو دي زاتو» أسبوعًا آخر. هل معك ما يكفي من المال؟

– لديَّ مبلغ صغير، «مادج» سددت حساب الفندق حتى هذا المساء.

– إنه تصرف أحمق من جانبك أن ترضخي لهذا الوضع.

– لا تنس أن عمتي كانت ستصبح حماتك.

– وأنت لا تنسي أنني لست مثل الإنجليز هادئًا ومتسامحًا. لقد نبّهت «لارين» أنني أرفض تدخل أمها في شؤوننا. على أية حال انتهى كل شيء ويجب الآن أن نرتب لقاء مع «تريستاو»، لا بأس إذا بقيت أسبوعًا آخر هنا، سأتولى دفع نفقات الإقامة في الفندق. عديني بأنك توافقين على المجيء إلى «الصقر الذهبي». إذا كان لقاؤك مع ابني ناجحًا. شعرت «جين» برهبة أمام هذا الموقف. وعلى الرغم من أنها لم تستلطف «الدوق» لكنها تشعر برغبة في التخلص من سيطرة «مادج» وابنتها عليها.

– لماذا تترددين؟ ألم يعجبك عرضي؟

– أريد أن أجتمع بابنك يا سيدي لكنني لا أستطيع أن أقبل بأن تدفع عني حساب الفندق إذا بقيت أسبوعًا آخر. لا.

– لا بأس، لن أدفع حساب الفندق شيكًا. فقد يؤدي ذلك إلى أقاويل وشائعات نحن في غنى عنها. سأعطيك المال نقدًا واعتبريه دفعة من راتبك إذا وافقت على العمل معي، هل هذا يريحك؟ خفضت «جين» عينيها ولم تجب.

– أنصحك يا آنسة بأن تشربي الشاي قبل أن تعودي إلى الفندق.

– السائق في انتظاري.

– لا تهتمي بالسائق. فهو يتناول المرطبات ويأخذ قسطًا من الراحة. سأتركك لحظة لأكتب رسالة سريعة. أرجو أن تأكلي الحلوى. انسحب «الدوق» وأغلق الباب خلفه وظلت «جين» تحدق إلى الباب كأنها ما تزال تلمح شبح «الدوق» يتخايل على الخشب اللماع. جلست في مقعدها وراحت تفكر قائلة: «هل من المعقول أن يتمكن رجل مجهول في أقل من ساعة من إحداث انقلاب في حياتها؟» شعرت بجفاف في فمها فسكبت مزيدًا من الشاي. كانت أشعة الشمس تتسرب من النوافذ وينعكس نورها المرتجف على إبريق الشاي الفضي.

من الجنون الإقدام على ما يطلبه «الدوق». فهي لا تعرف شيئًا عن تربية الأولاد لقد أمضت حياتها تلبي أوامر عمتها دون أن يفسح لها المجال لتناقش أو حتى لتسأل، وإلا وجدت نفسها على قارعة الطريق. وبصورة عفوية التهمت «جين» قطعة من الحلوى ثم أغمضت عينيها وراحت تتخيل ردة فعل «مادج» بعد أن تعلم أن «جين» ستتركها لتعمل عند «الدوق». تمشت «جين» في الغرفة ثم اقتربت من النوافذ العالية، وراحت تتأمل أشجار النخيل الكثيفة، لكن تأملاتها لم تطل فقد دخل «الدوق» فجأة مرتديًا بذلة رمادية أنيقة وقد بدا أقل عنفًا وعجرفة. قال:

– الشمس أوشكت على الغروب، أعتقد أنك تريدين الانصراف. سأتصل بك غدًا في الفندق لأطلعك على موعد اللقاء بابني... هل أنت راضية؟

www.rewity.com

– لا أستطيع أن أقول إنني راضية، لكنني أعتبر أن ما تطلبه مني مهم للغاية، ويمكن اعتباره بمثابة انقلاب كامل في حياتي.

– هل ستتولين أنت الإبراق إلى عمتك، أم تريدينني أن أقوم بذلك؟

– لا، شكرًا، سأهتم بالأمر عندما تأتيني دفعة من الشجاعة.

– أنت شجاعة ربما أكثر مما تعتقدين. سأوصلك إلى السيارة وأودعك.

تبعته «جين» بهدوء وهي تشعر بوطأة عينيه الساحرتين عليها، وبهذا التسلط الغريب الذي بدأ يمارسه نحوها منذ اللحظة الأولى، وبدأت تدرك كم هو صعب على امرأة الصمود أمام رجل قادر على أن يجعلها تشعر بأنوثتها. وفي شيء من اللامبالاة توقف «الدوق» مفسحًا المجال لـ«جين» لكي تمر أمامه في الممر الطويل الذي بدا مظلمًا بعد غياب الشمس. وعندما وصلت «جين» إلى السيارة قال لها «الدوق»:

– إلى اللقاء يا آنستي، أرسلي البرقية وانتظري اتصالي الهاتفي.

أقلعت السيارة بـ«جين» وبقي «الدوق» واقفًا على سلم «الفيلا» حتى غابت السيارة عن الأنظار. استرخت «جين» على مقعد السيارة الخلفي وراحت تستعيد وقائع هذا اليوم الحافل.

خيّم الظلام على المدينة وبدأت أضواء المرفإ تلمع على صفحة الماء عندما دخلت «جين» الفندق. توجهت إلى مكتب الاستقبال وأخبرت الموظف بأنها لن تسافر وأنها تود الاحتفاظ بغرفتها حتى آخر الأسبوع، كما طلبت إلغاء الحجز. ثم كتبت برقية إلى عمتها قالت فيها:

«إنني أحتاج إلى عطلة تمتد أسبوعًا. كل شيء تمّ كما اتفقنا. قولي لـ«لارين» أن تطمئن». توجهت «جين» إلى غرفتها وألقت نفسها على

السرير، ثم خلعت حذاءها وراحت تؤدي رقصة الهنود الحمر على السجادة السميكة، فلأول مرّة تتحدى «مادج»، وهي المرّة الأولى كذلك التي تتمرد فيها بتحريض من رجل، وأي رجل! إنه سيّد مجتمع، ثري وجذاب، يعرف كيف يخضع المرأة وكيف يجذبها إليه، إن هي أعجبته أو يتخلى عنها إذا لم تكن في مستوى تطلعاته.

كانت «جين» متأكدة أن برقيتها ستغضب «مادج» وكذلك «لارين» التي كانت تظن أن «الدوق» سيهرع إليها متوسلا أن تعود. لكن للمرّة الأولى في حياتها ستصاب هذه الفتاة الطائشة بخيبة الأمل. نظرت «جين» إلى ساعتها ووجدت أن وقت العشاء بات قريبًا. عليها إذن أن تهيئ نفسها ولن تتضايق إن هي تناولت العشاء وحدها، فقد اعتادت ذلك بسبب رحلات «مادج» المتعددة.

أخذت «جين» حمامًا ساخنًا وارتدت فستانًا بسيطًا ثم نزلت إلى مطعم الفندق وجلست وراء مائدة في إحدى زوايا المطعم، فهي لا تهتم بأن تلفت اهتمام الآخرين. لكنها تساءلت في نفسها: «كيف يكون شعور المرأة التي تتناول طعام العشاء مع الدوق «بيدرو»؟» وأجابت نفسها: «ستجد أن الجميع يعاملونه وكأنه سلطان زمانه ويعاملون رفيقته كأنها سيدة النبيلات».

وفي اليوم التالي انتظرت «جين» بفارغ الصبر اتصالا هاتفيًا من «الدوق»، كما وعد، لكن دون جدوى. وكانت قد أمضت النهار جالسة في شرفة غرفتها تتأمل الشاطئ وتستعيد كل ما حدث لها منذ أن جاءت إلى «البرازيل» إلى أن وافقت على العمل عند «الدوق». ولم تشعر إلا وقد

WWW.REWITY.COM

حل الظلام فراحت تتساءل: «هل غيّر «الدوق» رأيه؟ على أية حال إذا لم يتصل بي فغدًا سأعود إلى «لندن»».

عندما استيقظت في اليوم التالي بعد ليلة مضطربة هالها مجرد الشعور بأنها لن تستطيع مواجهة الوضع الحرج الذي وجدت نفسها فيه، ولاحظت أن كل ما تملكه من مال يكفيها لقضاء يوم واحد في الفندق. بعد أن تناولت فطور الصباح في شرفة غرفتها، قررت أن تذهب لتتمشى قرب المرفإ ثم تتوجه إلى الشاطئ لتستريح على الرمال الناعمة. ارتدت ملابس السباحة بسرعة ووضعت منشفة في حقيبتها، ثم وقفت أمام المرآة تتأمل نفسها: إنها تشبه مراهقًا لا تزال البراءة في عينيه. أخذت صور الماضي تمرّ بخيالها. لم تعرف يومًا كيف يكون الحنان؟ وماذا تعني المحبة؟ كانت وهي طفلة تشعر بالتعاسة وتبكي وحيدة، لا من يواسي أو يعزي أو يتجاوب مع أحلام الطفولة. وتذكرت كلمات لـ«أدجار ألان بو»:

«منذ طفولتي لم أكن حيث كانوا ولم أرَ ما كانوا يرون».

- 4 -

كانت «جين» سعيدة وهي تتمشى وحدها في هذا المناخ الدافئ. راحت تتسكع في الشارع الرئيسي وتتأمل بإعجاب البضائع العديدة الملونة الموضوعة في واجهات المحلات، الحجارة النادرة والميداليات المرصعة. ولفت نظرها صندوق مجوهرات من درع السلحفاة ومزين بالياقوت

الأصفر. ثم راحت تمشي في الشوارع المؤدية إلى أماكن لا يمكن وصفها، حيث تنتصب شجيرات النخيل هنا وهناك، وشلالات من النباتات الملونة المزروعة في أوان فخارية تتدلّى من شرفات البيوت.

جلست «جين» على أحد الحواجز البحرية وأخذت تلتهم السمكة التي اشترتها من صيّاد بدا لها وكأنه أحد القراصنة. وأخذت تتأمل البحّارة يفرغون ما في زوارقهم من أسماك مختلفة الأنواع والأحجام. لاحظت «جين» امرأة عجوزًا تبيع الفاكهة، فذهبت إليها وابتاعت فاكهة تحبها لتتناولها بعد الغداء.

وفجأة شاهدت ولدًا يعبر الطريق المتعرجة بسرعة قصوى ساعيًا وراء كرة حمراء، وإذا سيارة فخمة تتقدم من غير أن يرى سائقها الصبي. وهنا رمت «جين» فاكهتها وهرعت نحو الصبي وانتشلته من حيث كان عرضة لأن تصدمه السيارة، ثم سمعت الصوت العنيف الذي يحدثه كبح العجلات فجأة. خرج من السيارة رجل طويل القامة وقال بغضب:

- ماذا تفعلين هنا؟ فوجئت «جين» بصوت الشخص الذي يكلمها فالتفتت إليه وإذا به الدوق «بيدرو». تمالكت أعصابها وقالت:

- خشيت أن يحصل مكروه للولد. كان يطارد الكرة ولم يرَ سيارتك. كان الولد يبكي ويصرخ محاولا التخلص من قبضة «جين» والالتحاق بجدته التي كانت تركض نحوه محاولة اختراق الجمهور المحتشد وسط الطريق. تجمع المارة حول «جين» وراحوا يربتون كتفها مهنئين إياها على شجاعتها. وسمعت بعضهم يشرح لـ«الدوق» ما حصل ويقولون:

www.rewity.com

– هذا الفتى السائح أنقذ الولد. هذا الفتى؟! وتطلع «الدوق» إلى «جين» التي ظنها المارّة أنها فتى ولاحظ مدى التغيير الذي اعتراها في يوم واحد. ودعاها إلى سيارته الرمادية، وأدار المحرك وانطلق. قال «الدوق»:

– لم أكن أتصور أن يكون لقاؤنا الثاني مأساويًا كالأول. بماذا شعرت عندما ظنك الآخرون صبيًا شجاعًا؟

– لا أعرف بالضبط. المهم أنني ساعدت هذا الصبي وأنقذته من الموت.

– والآن، أما زلت تعتبرين نفسك جبانة؟

– الشجاعة أو الجبن غير مرهونين بحادث معين، كلاهما موجود في مكان ما داخل الإنسان. أوقف «الدوق» سيارته أمام أحد المطاعم وقال هامسًا:

– هل تناولت طعام الغداء؟

– أكلت سمكًا وفاكهة وكان الغداء لذيذًا.

– لا أظن أن هذه الوجبة تكفي لفتاة مراهقة تحتاج إلى كمية من الطعام تساعدها على النمو.

– أنا في الثانية والعشرين من عمري يا سيدي «الدوق».

– أعرف أنك صرتِ شابة، ليس هذا هو المهم. هل تحبين تناول طعام الغداء معي؟

– لا أظن أنني أستطيع مرافقتك بهذه الثياب، فقد لا أكون الرفيقة المناسبة.

– لماذا ذهبت تتنزهين بدلا من أن تنتظري مكالمتي الهاتفية؟ اتصلت

بك عند الساعة التاسعة والنصف صباح اليوم فقيل لي إنك ذهبت إلى الشاطئ.

– اتصالك بي كان محددًا ليوم الأمس، وقد أمضيت النهار كله أنتظره. ولم أخرج إلا اليوم وفي نيتي أن أسبح، حتى شاهدت هذا الصبي يتعرض للموت ، وركضت وراءه.

– لم أستطع الاتصال بك أمس، فقد انهمكت في قضية طارئة. لننسَ ما حصل وتعالي نتناول طعام الغداء. كانت «جين» تنظر إليه بعينين واسعتين مدهوشتين. فقد كان مصممًا على مكالمتها كما وعدها. وقال:

– هل كنت تفضلين أن تكوني رجلا بدلا من امرأة؟ أجابت وهي ترفع كتفيها:

– ربما، من الأفضل لليتيم أن يكون صبيًا.

– هل تعتقدين أن الرجال أكثر الناس قساوة، وأقلهم حساسية؟ بدأت ملامحه تأخذ تعبيرًا غريبًا وهو ينظر إليها. ثم أضاف:

– نعم، ينقصك معرفة الكثير من الأشياء، يا فتاتي. وأول شيء هو ألا تتحسري على أنوثتك. فذات يوم سيأتي رجل يبدي سعادته بأنك امرأة.

– صحيح؟ قالت لي «مادج» مرّة إن أحد أصدقائها قال عني إني أشبه الجنية. إنها كائن خرافي في بلادنا، نسمع بها ولا نراها أبدًا، وتقوم بمهمات غير حسنة.

– إذن أنت خرافة ولست حقيقة، وشد «الدوق» بيده على كتفيها، ولم تقدر «جين» أن تتخلص من يده وقال:

www.rewity.com

– أنت فتاة حساسة... أوه، إنك ترتجفين، ألا تحبين أن يلمسك أحد؟ هل تشعرين بإحساس جديد لم تشعري به من قبل؟

– بطبيعة الحال لأن أحدًا لم يلاحظني من قبل. قاطعها «الدوق» قائلا:

– هيا لنتناول بعض الطعام، ثم نذهب ونقابل «تريستاو».

– اليوم؟

– اليوم بالذات، إنه موجود عند إحدى صديقاتي، سنقوم بزيارة بسيطة ولن نقول لأحد إنه من الممكن أن تصبحي رفيقة «تريستاو». لا يجب أن يشعر بخيبة الأمل مرّة ثانية، أليس كذلك؟

– بالطبع، نزلت «جين» من السيارة وانتظرت «الدوق» أمام مدخل المطعم الذي كان يدعى «الوردة السوداء» بينما كان يوقف سيارته. وتبين لها كم تودّ أن تحصل على هذه الوظيفة.

– أنا سعيد يا آنسة «داير»، لمعرفتي أنك ستخاطرين بحياتك من أجل ولد مجهول. ربما سمعت عن الحالة السياسية التي تهدد بعض المناطق في «البرازيل». ليست كما يجب أن تكون، وأنا غير موافق على الحكم الحالي. إذا عملت عندي...

– أفهم يا سيدي. إني أعدك أن أهتم بابنك كل الاهتمام، هذا إذا أعجبته؛ لأنني أسأل نفسي إن كان سيقبلني «تريستاو».

– وأنا أيضًا أتساءل يا آنسة، لكنني أقول لك مرة أخرى أن تقلعي عن عادة التقليل من قيمتك. لا شك في أنك كبرت وصارت لديك الرغبة في التشبه بابنة عمتك، لكن كوني متأكدة أنك لو كنت تشبهينها،

لما كنت الآن معي في هذه اللحظة.

– هل تكرهها إلى هذا الحد؟

– لا يمكن لأحد أن يكره إنسانًا لم يحبه من قبل. ألقت «جين» نظرة خاطفة إلى «الدوق» بينما كانا يدخلان الفندق. المكيف الهوائي يدور في سقف المطعم والخدم يرتدون المرايل البيضاء ويحملون الصواني مسرعين. تغمر الجو رائحة ذكية تفوح منها نكهة التوابل. وامتدت الفاكهة الموسمية المحلية على طاولة كبيرة في عرض المطعم. أسرع صاحب «الوردة السوداء» لمقابلة «الدوق»، معبرًا عن سعادته بقدومه إلى مطعمه. وأجلسهما أمام مائدة على انفراد قرب إحدى النوافذ. وبحركة من أصابعه، أصدر أوامره لأحد الخدم أن يهتم بطاولة «الدوق» ومعرفة ما يريد من شراب وطعام.

– هذا شرف، يا سعادة «الدوق». انحنى الرجل أمام «الدوق» للمرّة الثانية. ولم يتوقف عن التأمل بعينيه السوداوين اليقظتين، قامة رفيقة «الدوق» النحيلة. حجبت «جين» الابتسامة عن وجهها. لابد أنها تبدو غريبة وعجيبة إلى جانب «بيدرو دي زاتو»، البالغ الأناقة. وكان بعض الزبائن ينظرون إليهما علانية دون مواربة. لكن «الدوق» لم ينتبه لما يجري حوله لأنه كان يتفحص لائحة الطعام والشراب وهو الذي يعرف تذوق الطعام الجيد. وطلب طبقين من المقبلات الباردة والساخنة، يليها طبقان من لحم البقر المطبوخ مع البصل، البطاطا والبازلاء.

– ماذا تحبين أن تشربي؟ الطقس حار وعصير الليمون منعش. ما رأيك؟ وافقت «جين» على أخذ عصير الليمون، لأنها كانت شديدة العطش.

www.rewity.com

ولأول مرة في حياتها، كانت «جين» مصدر اهتمام رجل يتمتع بهذه القدرة. إنها ولا شك تجربة مزعجة أن تلحظ الغيرة في عيون النساء من حولها، حتى ولو كان الحسد مقرونًا بالدهشة. تقدمت طاولة المقبلات أمام مائدة «الدوق»، وأخذت «جين» تختار بمتعة ما تحب، إنه شيء جديد بالنسبة إليها. سكبت عصير الليمون في كأسها، وشربت جرعة سريعة لتشفي ظمأها. ثم انتبهت أن عليها انتظار «الدوق» الذي قال وهو يبتسم ابتسامة سريعة تظهر بياض أسنانه الناصعة:

– هيّا... هل سأتولى تعليمك التصرف بلياقة؟

– نعم، هذا لا يزعجني. إني أشكرك على اهتمامك بي وأنا ما زلت متعجبة لأنك لم تطردني يوم جئت بخبر فسخ الخطبة. عندما أفكر في ذلك من جديد أ... قاطعها قائلا:

– لا تنظري إلى الوراء أبدًا. البارحة يوم مضى، كشمعة أطفأتها الريح من الأفضل أن تفكري في المستقبل. اشربي وكلي يا آنسة. أطاعته «جين» وهي تفكر في ملاحظته الأخيرة... هل أحبّ ابنه لأنه أحب والدة الصبي كثيرًا؟ ولماذا إذًا لم يتزوجها؟ ماذا جرى حتى ولد «تريستاو» خارج الزواج؟ كانت «جين» محتارة، فهي لم تعد تعتبر أن «بيدرو دي زاتو» أطاح بقلب امرأة ثم تبنى ابنها تعويضًا لما حصل. لا، هناك شيء آخر وراء هذه القصة... ولم تكن «جين» ساذجة لدرجة تجهل معها أنها فعلا على وشك أن تقع في الهوى لأول مرّة في حياتها. وقبل أن يحتل الحب قلبها قررت مغادرة «بورتو دي زاتو» في اليوم نفسه. ستذهب لرؤية ابن «بيدرو» كما وعدت، ثم تشرح لـ«الدوق» أن عليها العودة إلى

عملها مع «مادج». وأنها تأسف لعدم قدرتها على البقاء.

– إذًا، يبدو أنك زرت المدينة، هذا الصباح؟ انتفضت «جين»، وهي تسمع صوت «الدوق» الحاد الجذاب يسحبها فجأة من تفكيرها. نظرت إليه واستشعرت الشفقة في عينيه. ارتجف قلبها وقالت في نفسها: «أترى لاحظ ما يجري؟» لا شيء يذهلها إلا إذا اكتشف.

– ماذا حصل؟ هل أنت خائفة؟

– لا. بل أفكر في عمتي... عذرًا... ابتسم ابتسامة سريعة وقال:

– تشجعي، الطعام حاضر. أرجوك أن تتذوقي هذا اللحم الطري وأعطني رأيك فيما بعد. كان اللحم لذيذ الطعم مع البصل المقلي. ولأول مرّة تتذوق «جين» البطاطا المخلوطة بالبازلاء والمطبوخة في صلصة البهار. وبينما كانا يتناولان الطعام ويشربان القهوة السوداء، أخذ «الدوق» يكلمها عن «بورتو دي زاتو» وأخبرها بأنه من سلالة الدوق «بيدرو» الذي كان يحب راهبة من اللواتي اختطفهن القراصنة، وكانت فديتهن حجارة كريمة.

– هذه القصة العاطفية تحمسك، أليس كذلك؟ لا شك في أنك تفكرين في مصير هذا «الدوق» الطاغي الذي عشق تلك الراهبة الرقيقة. ولابد من أن هذه القصة تبدو شيئًا لا يصدق أو خرافة. إنما هي بالفعل قصة واقعية. فقد حرر «الدوق» حبيبته لكنها لم تترك سلك الرهبنة. فتزوج امرأة أخرى وورثت عائلتها أمواله الطائلة. وكانت ممتلكاته تمتد إلى شواطئ «الأمازون». توقف «الدوق» عن الكلام واضعًا يده على وجهه مظهرًا خاتمًا من الذهب حُفِر عليه «الصقر الذهبي». لابدّ من أنه خاتم

www.rewity.com

مصنوع على يد جوهري من العصر القديم. ثم عاد وأكمل قائلا:

– واليوم، الحياة أقسى لأن الإنسان يعتقد أنه أكثر تمدنًا. ثم أضاف:

– الآن، وقد تناولنا طعام الغداء، سنذهب لزيارة صديقة لي، السيدة «فيليسيا دي إيفانجيل»، التي عالجت شقيقتي قبل أن تتزوج بـ«كاسترو دي إيفانجيل»، الشاعر المجهول. هي و«كاسترو» لم ينجبا أولادًا. و «فيليسيا» تحب رفقة «تريستاو» وهو لا يحب البقاء وحده في «فيلا الصخرة». وهكذا عندما أجيء إلى الساحل، لأقوم ببعض الأعمال آتي به لزيارة «فيليسيا». وأنت هل أعجبتك «فيلا الصخرة»؟ قالت «جين» معترفة، لكنها كانت مهتمة بكل ما قاله «الدوق» عن صديقته «فيليسيا»:

– نعم. بالفعل إن هذا المنزل يستحق اسمه، مما جعل «مادج» تدعوه حصنًا.

– آه، صحيح؟ تلألأت عينا «الدوق» وقال:

– لابدّ من أن عمتك فكرت في أنني سأعامل ابنتها الجميلة كسجينة... سيكون ممتعًا للغاية إذا جئتِ وعملتِ عندي، أليس كذلك؟ أجابت «جين» بحزن:

– ستغضب عمتي غضبًا ساخطًا حتى إنها دون شك لن تقبلني مرة ثانية، فبعد الذي حدث، لست أدري إذا كنت أتصرّف بتعقل و... وسألها بنظرة تهكمية:

– وهل من الحكمة أن تظلي ضحية امرأة طاغية؟ وهل تخشين أن أكون أكثر استبدادًا منها؟ نظرت «جين» إليه بعينيها البريئتين ورأت على

وجهه كل السحر وانتابها الذعر فقالت:

– أكون حمقاء لو اعتبرتك إنسانًا سهل الطباع يا سيدي، على كل حال لا أعتقد أنك تحتمل الأغبياء. اعترف قائلا:

– لا، حتى ولو أنني أراك تتصرفين ببعض الغباء إذ وضعت كل إخلاصك في عمتك وابنتها، كما أنني في الوقت نفسه، لا أعتبرك امرأة طائشة غير قادرة على التكيّف مع عادات البلد، أو مع القوانين التي يجب مراعاتها داخل منزلي. أشار بيده إلى صاحب الفندق ثم دفع الحساب. وخرج «الدوق» مع «جين» من المطعم ونظرات الزبائن الفضوليين تتبعهما حتى غابا عن النظر. لا أحد من الذين يعرفون «الدوق» تجرأ على محادثته، وهو يمر قرب الطاولات رافعًا رأسه.

كانت الحرارة في الخارج قد ارتفعت بعض الشيء، لكن مكيف الهواء داخل السيارة كان يعمل بصورة مستمرة، حتى وهما يتناولان الغداء داخل المطعم. ولما دخلا السيارة شعرت «جين» ببرودة الجو وانتعاشه، وبدأ قلبها يتسارع بالخفقان عندما أدار «بيدرو» المحرك واتجه بالسيارة نحو الطريق. كانت السيارة قد اجتازت حوالي كيلومترين عندما كفّ «الدوق» عن صمته فجأة وسأل «جين»:

– هل أنت متوترة؟

– قليلا.

– ليس شيئًا مزعجًا أن تتعرفي إلى ابني... أعتقد أن «لارين» أخبرتك بأنني لم أتزوج أحدًا من قبل، وأن «تريستاو» ابن غير شرعي، ربما أزعجك ذلك، أنت الفتاة المحافظة...

www.rewity.com

– إذا أردت أن تعني بذلك أنني حاقدة على الولد بسبب علاقة والده، أؤكد لك أن ذلك خطأ. إنني فقط أخشى خيبة أمله عندما يراني، هو الذي تعرّف إلى «لارين» وأعجبه شكلها. أعرف تمامًا أني لست جميلة. وكون «تريستاو» ابنك، سيدي، فلا شك في أنه ورث عنك ما تحب أو ما لا تحب.

– إنه بالتأكيد من آل «زاتو»، لكن، هل سبق وأظهرت لك أنك لا تعجبينني؟

– سأقوم بالعمل عندك ولذلك فلا أنتظر منك أن تشعر تجاهي بعاطفة شخصية. يكفي أن تراني كفئًا وتثق بي.

– لا يمكن لأحد أن يشك في أنك تحاولين الإغراء يا آنسة... أتعرفين أن ذلك يحير الرجل عندما يجد نفسه فجأة أمام فتاة شابة لم تقم حتى الآن بأي مغامرة عاطفية؟ لا شك في أن الأشياء المنيعة جذابة مثل الحديقة المسيجة... أو النبع تحت الأرض... أو عين ماء مغلقة. ألا تعرفين نشيد «سليمان»؟

– ربما قرأته ذات يوم. وشعرت «جين» بانزعاج لم تعرفه من قبل. وبدأت تتساءل إن كانت براءتها ستوقظ الذئب في «الدوق». قالت بتعجب وهي تشير بيدها:

– آه! أنظر يا سيدي، أليس هذا رائعًا؟ أدار نظره نحو الكنيسة الواقعة على سفح الجبل. جدرانها بيضاء وبرجها العالي الضيق، ترتفع هنا، إنها صور ستبقى محفورة في ذاكرة الفتاة. قال «الدوق» موشوشًا:

– إنها كنيسة «دير اليمامة النائحة». جرى تدمير البناء القديم وحرقه

منذ القدم، وبنيت هذه الكنيسة من جديد، في المكان نفسه.

– لا شك في جمالها. أجاب بصوت جاف:

– نعم. هل تجذبك الأجراس، الصلاة وحياة الرهبنة؟ إذًا، لابدّ من أن تصبحي صديقة لأختي التي دخلت الدير في «البرتغال»، منذ بضع سنوات إنها شقيقتي الوحيدة. واختارت هذا النوع من الحياة بعدما قتل خطيبها في «البيرو». كان عالم آثار ولقي مصرعه في خلال التنقيب حيث تهدم حائط عليه. بعدما أنهى «الدوق» كلامه، وصلت السيارة إلى باب حديدي تابع لمنزل خاص. إنه بيت صديقته، السيدة «فيليسيا دي إيفانجيل». وبدت الحديقة، المزينة بشتى أنواع الزهور وبتماثيل الرخام، كأنها استقبال احتفالي. توقفت السيارة قرب السلالم التي تؤدي إلى المنزل ذي الحجارة الزهرية اللون. وكانت النوافذ العالية تعطي جوًا شرقيًا وباب المدخل مزخرفًا وجميلا. هذا المكان المليء بالسحر، يسيطر عليه الهدوء والسكينة. وشعرت «جين» كأنها موجودة في قلب «البرتغال». التقت عيناه بعينيها وبدا على وجه «الدوق» ابتسامة شاحبة.

– أشعر بأنك ترتجفين بعض الشيء. إني لا أتذكر أنك ارتجفت هكذا في لقائنا الأول.

– هذا مختلف تمامًا. فلم أذهب يومئذ إلى منزلك تحت طائلة القبول أو الرفض.

– معك حق. كنت تتوقعين مني الغضب وهذا من السهل التغلب عليه. أما الآن فعليك مواجهة ولد متقلب الأطوار. وأظن أن الوقت قد حان.

www.rewity.com

- 5 -

كان الجو منعشًا ومضيافًا داخل البهو الواسع. وباقات الزهر موضوعة في الزهريات تتصدر الطاولات والرفوف. وفي وسط المدخل درج حجارته من الخزف الليلكي المصنوع في «البرتغال»، وقد رسمت عليه المناظر الطبيعية والأشخاص. كانت «جين» تنظر بإعجاب إلى هذا الأثاث الأنيق، عندما جاءت خادمة شابة تقودها إلى رواق ذي قناطر يتصل بالدار، حيث النباتات المزهرة تسلقت الجدران. والفراشات والزنابير تحلق بين الشجيرات. وهنا وهناك المقاعد الحديدية المسبوكة والمطلية بالأبيض، والمزخرفة. وهذا النوع تتميز به «أمريكا اللاتينية».

كانت لخطوات «الدوق» صدى على الأرض. وانتصبت امرأة كانت جالسة على أحد المقاعد واقتربت من «الدوق» وهي تمد يدها للسلام وفي الحال شعرت «جين» بأناقتها وجاذبيتها. شعرها الأسود مرفوع بشكل كعكة. ابتسمت عند اقترابها من الدوق «بيدرو دي زاتو».

– عزيزي «بيدرو»، ما أجمل رؤيتك بهذه السرعة! انحنى «الدوق» أمامها يقبّل يدها، وقال:

– وأنت أيضًا، ما أسعدني برؤيتك يا عزيزتي «فيليسيا»! فأنت دائمًا بهجة للعين. ولا يوجد في «البرازيل» كلها حديقة أجمل من حديقتك، تشعر الواحد بأنه موجود في «البرتغال».

– هذا لطف منك، يا «بيدرو». ورفعت السيدة «دي إيفانجيل» وجهها الذي يشبه زهرة غريبة تذبل أمام ابتسامة «الدوق» الحارة وقالت:

– مازال «كاسترو» في الباخرة، وكم كنت سعيدة برفقة «تريستاو». وبينما كانت «جين» تستمع إلى الحوار الذي يدور بلغة إنجليزية صحيحة، كالمتداولة غالبًا بين الأمريكيين المثقفين، لمحت الصبي الصغير جالسًا كعفريت على أحد جدران الدار المنخفضة. كان ينظر إليها وابتسامة خفيفة في عينيه المتلألئتين كالذهب في ذلك الوجه الصغير الساخر، وبقربه هرّ أبيض يرتدي عقدًا أزرق يتدلى منه جرس صغير، ويموء كلما داعب الصبي فروته اللامعة. وكلما التقى نظرها بنظره، كان قلبها ينقبض.

– آنسة «داير». انتفضت «جين» حين سمعت «الدوق» يناديها، فالتفتت إليه. وبدا التعقل مستحيلا إذ شعرت برغبة في البقاء قرب «الدوق» وابنه. ولأول مرّة في حياتها تريد شيئًا ما بكل قواها. وكأنما مصيرها متعلق بيدي هذا الولد اللتين كانتا تداعبان الهر الأبيض. قال «الدوق» بصوت عذب:

– «فيليسيا»، هذه الفتاة التي كلمتك عنها هاتفيًا. ترغب في العمل في «البرازيل» والتقيت بها عندما جاءت برسالة من قبل ابنة عمتها. إنها تدعى «جين داير».

– أنا سعيدة بمعرفتك يا آنسة «داير». نظرت «فيليسيا دي إيفانجيل» إلى «جين» وجهًا لوجه. كانت تبتسم وعيناها تبحثان فيها عن تشابه مع «لارين». ثم قالت:

– ما الذي دفعك للبحث عن عمل في «البرازيل» يا آنسة؟ الصيف على الأبواب والحرارة تصير عالية إلى حدّ الإرهاق، وأنت لا تشبهين اللواتي

نراهن على الشاطئ وقد اسودت بشرتهن من جرّاء تعرضها لأشعة الشمس. ابتسمت «جين» ابتسامة خجولة ومتوترة وقالت:

– يسعدني أن أتعرف إليك يا سيدتي. إن منزلك من أجمل المنازل، لم أر مثله من قبل.

– شكرًا جزيلا. وبدت عينا «فيليسيا» السوداوين أكثر دفئًا وتابعت قائلة:

– هذا المنزل من الطراز الحديث. إنه ممتع حقًا، ويشبه المنازل البرتغالية بكل تفاصيلها، أنا برتغالية. ولد زوجي في «البرازيل»، مثل «بيدرو»... مثل حضرته. ألقت «فيليسيا دي إيفانجيل» نظرة سريعة إلى «الدوق»؛ لأنها لم تعرف بعد، كيف يعامل «الدوق» ابنة عمتها، خطيبته السابقة، لكن «الدوق» كان ينظر إلى ابنه ولم يلاحظ لهجة التساؤل في صوتها.

– تعالَ يا «تريستاو» وقابل صديقة جديدة. إنها فتاة شابة من «إنجلترا»، وربما تبقى معنا لتعيش في «الصقر الذهبي».

– إذًا يا أبي، ستتزوجها؟ كان صوته الناعم الواضح أشبه بصوت عصفور. شعرت «جين» بعذاب في داخلها، وأحست برغبة في الهرب قبل أن تلتقي عيناها عيني «الدوق» من جديد. أجاب «الدوق» بنبرة مجرّدة:

– أعتقد أنك تفضل أن تكون الآنسة صديقة لك، صديقة حميمة، معها يمكنك استكشاف الغابة والتنزه على الشاطئ وأنت على ظهر جواد. وهي ستخبرك بكل شيء عن بلادها وتمرّنك على الدروس الإنجليزية

قبل أن تذهب إلى المعهد الذي درست أنا فيه.

– حيث كنت تلعب الرجبي يا أبي؟ وحدّق «تريستاو» بعينيه الذهبيتين إلى وجه أبيه. وشعرت «جين» بارتجافة «الدوق» الأليمة. هذا الرجل الطويل القامة الذي كان يبدو سيد نفسه.

– نعم، يا عزيزي، هناك في المعهد حيث ستكون تلميذًا أفضل مني. تعال يا بني، وسلّم على الآنسة «داير». انسلّ الصبيّ مطيعًا والده، ووصل وهو يعرج. واستجمعت «جين» قواها وحاولت جاهدة الابتسام.

– نهارك سعيد، آنسة «داير». مدّ «تريستاو» يده، ورفع صوبها وجهه الصغير وعينيه الرصينتين الخائفتين. وفكرت «جين» في لحظة سريعة أنه لا يشبه «الدوق» شبهًا أكيدًا بل ربما يشبه والدته.

– أنا سعيدة بمعرفتك يا «تريستاو»، آمل أن نصبح من أعز الأصدقاء. شدّت «جين» على يده وشعرت بخفقة صغيرة في قلبها عندما سحب يده ولم يبتسم لها. اكتفى بأن حدّق إليها، وتأكدت «جين» كل التأكيد أنه كان يقارنها بابنة عمتها «لارين». لاشك في أن روح النكتة التي تتمتع «جين» بها أنقذتها مرّات عدّة من المواقف الحرجة، فقالت:

– أرى أنك تحب القطط. وأنا أحبها كذلك؛ لأن الكلاب غالبًا ما تكون كبيرة الحجم كأنها ستلتهمني دفعة واحدة.

– عند أبي كلب يعيش معنا في «الصقر الذهبي»، لن يعجبك. وعندما ينتصب يصبح بطول أبي، وفي الغابة أسود أيضًا، تأتي أحيانًا قرب المنزل. حسنًا، فكّرت «جين». لقد رغبت كثيرًا في الوصول إلى هذه اللحظة. أجابت:

WWW.REWAYAT.COM

– العيش قرب الغابة المتوحشة مثير للاهتمام، لكن بالنسبة إلى فتاة إنجليزية أليفة مثلي فالأفضل أن تعيش في بلادها. إنني إذا شاهدت أسدًا قريبًا مني، فسأصاب بالذعر، دون شك. نظر «تريستاو» إلى عيني «جين» بحماس وقال:

– لم أر من قبل أي إنسان ذي عيون خضراء. عادة القطط فقط... قال «الدوق» بقساوة ملطفة:

– «تريستاو»، أنسيت حسن التصرف؟

– لكن يا أبي، عيناها خضراوان.. وابتسم الصبي وقال:

– إني أراهن على أن الآنسة «داير» تمو، إذا داعبها أحد. ضحكت «جين» لهذه الملاحظة. ولما رأت التقلص على وجه «الدوق» قالت بسرعة:

– إنك على حق يا «تريستاو»، هل تريد اختبار ذلك؟ مدّت «جين» ذراعها النحيلة نحو الصبيّ وقالت:

– داعبني، وترى. تدخّل «الدوق» وقال:

– لن تفعل شيئًا كهذا. ألقى «الدوق» نظرة خاطفة إلى «جين»، فيها لمحة غضب غريبة.

– لا تشجعيه على التظاهر بقلة الاحترام، يا آنسة «داير». لا يجب أن يعتبر أن رفيقته لعبة يمكنه أن يلاعبها بالحرية نفسها كما يلاعب قطارًا أو دمية. أجابت «جين» بجرأة هادئة:

– ومن جهة ثانية يا سيدي، لا أريد من «تريستاو» أن يعتبرني فتاة حزينة نسيت طفولتها. الأولاد يتمتعون بحرية كبيرة مع لعبهم وكذلك

أيضًا مع الأشخاص الذين يعيشون معهم. إني لا أعدك بأني سأكون وصيفة لابنك، كما في القرن الماضي، إذا كان هذا ما تتوقعه مني. لا يمكنني إلا أن أكون نفسي. ولدى سماع «الدوق» هذه الكلمات، قطب حاجبيه العريضين فوق أنفه المتغطرس، ودخل خادم يحمل صينية عليها بعض الأطعمة الخفيفة وإذا بالسيدة «فيليسيا دي إيفانجيل» تدعو الجميع إلى تناول طعام العصر:

– تعالوا، الطاولة حاضرة. الشاي والحلوى مع الكريما وكعكة الفريز (الفراولة) ومجموعة من الفاكهة.

– يبدو لي يا آنسة «داير» أنك لست الفتاة المتزنة التي يجب أن أختارها للسهر على «تريستاو».

– من حقك أن تفكر في ذلك يا سيدي. نظرت «جين» إلى عيني «الدوق»، رافعة الرأس، مستعدة تمامًا لمجابهته.

– نعم هذا من حقي. ما رأيك يا «فيليسيا»؟ هل هذه الفتاة بعينيها الخضراوين تصلح حقًا لتكون موضع ثقة؟ ردت «فيليسيا» وهي ترمق الدوق بنظرة مفاجئة فيها بعض التحدي قائلة:

– «بيدرو» أنت لم تتردد من قبل في إعطاء رأيك بأحد. والآنسة «داير» ما زالت شابة، لكنها تبدو فتاة ذكية ومليئة المخيلة. أعتقد أن صفاتها أهم بكثير من... توقفت «فيليسيا» عن الكلام، وابتسمت لـ«جين» وبدأت تقدم الشاي. انسل «تريستاو» قرب «جين» وسألها بصوت منخفض:

– هل حقًا تستطيعين المواء، يا آنسة؟ كان صوت «جين» يحمل

www.rewity.com مـرمـوريـت

بحة طبيعية. وأحيانًا يمكنها أن تصدر رنة شبيهة بالمواء. أخذت «جين» «تريستاو» إلى زاوية منفردة وأحنت رأسها نحوه وبدأت تموء. فجأة ضحك «تريستاو» وشدّ بيده على يدها. سألها «تريستاو» بصوت منخفض:

– وهل يمكنك أن تتحولي إلى هرّة؟

– كلا، يا صديقي، لكنني أتمنى ذلك أحيانًا. ظلّت عينا الصبي تحدقان إلى وجه «جين»، ثم اتجه نحو أبيه قائلا:

– أعتقد يا أبي، أنني سأكون سعيدًا لو بقيت الآنسة معنا لتعيش في «الصقر الذهبي»، فهي لا تشكو من شيء. ثم شعر «تريستاو» بالوحي فجأة، وأكمل وهو يلقي نظرة سريعة إلى «جين» قائلا:

– أرى أنها ينقصها الغذاء الكافي. وستتحسن أحوالها إذا جاءت وعاشت معنا. قال «الدوق» بنبرة جافة:

– إذًا علينا أن نصطحبها معنا. شعرت «جين» بالحزن لدى سماعها أقوال «تريستاو» ولكنها ما لبثت أن أحست بالارتياح عندما قرر الصبي بنفسه قبولها بينهم. قالت «فيليسيا» مقاطعة حبل تفكير «جين»:

– تعالوا نشرب الشاي. اجلسي هنا يا آنسة «داير»، وأنت يا «بيدرو»، اجلس قبالها. وهذا فنجانك يا «تريستاو». اجلس على الحافة وخذ هذه الكعكة. وأنت يا «جين»، هل تأخذين بعض الحلوى؟ أتسمحين لي أن أناديك باسمك؟ إنك صبية شابة، وهذا من صالح «تريستاو» ولهذا السبب اختارك. أعتقد يا «بيدرو»، أنك عرفت كيف تختار رفيقة «تريستاو».

– ولماذا تعتقدين ذلك، يا «فيليسيا»؟ أخذ «الدوق» فنجان الشاي وسحب كرسيًا مريحًا. وأخذ يتأمل «فيليسيا» بإعجاب، في ثوبها الحريري الأزرق. كانت تجلس في الظل، وكانت الأقراط الصغيرة الزرقاء تلمع في أذنيها مثل الأصداف مظهرة لون شعرها الحالك السواد.

– فقط لأنك تصرفت بتعقل، كنت رزينًا أكثر من اليوم الذي اخترت. لن أكمل... قالت «فيليسيا» هذا الكلام وهي تبتسم بهدوء وبقليل من السخرية. ثم وجهت حديثها إلى «جين»:

– أليس لديك أقرباء يمكنهم أن يعارضوا إذا عرفوا أنك تعملين في «البرازيل» يا «جين»؟

– مات أبي وأمي عندما كنت صغيرة جدًا حتى أني لا أتذكرهما. أخذتني عمتي إلى بيتها وتربيت على يدها. لكن ليس هناك أيّ صلة حميمة تجمعنا، وحتى مع ابنة عمتي، فطباعنا مختلفة تمامًا. ولاحظت «فيليسيا» قائلة:

– ستفاجأ عمتك كثيرًا عندما تخبرينها بخطتك. لا شك في أن الوضع حرج وجارح يا «بيدرو».

– صحيح يا عزيزتي.

– أنت إذًا تعرف جيدًا أن الآنسة «داير» هي سكرتيرة عمتها التي كادت أن تصبح حماتك. هل تفعل ذلك عن قصد؟ أعرف أنك أحيانًا رجل حاذق وحاضر للانتقام.

– هذا ممكن يا عزيزتي.

– هل تريد مزيدًا من الشاي؟ هزّ رأسه ونظر إلى ساعة يده:

www.rewity.com

– كلا، شكرًا. سنعود إلى الفندق حيث تقيم الآنسة «داير». وفي المساء عليَّ حضور وليمة عشاء مع بعض رجال الأعمال. لقد مضى الوقت بسرعة. وأنت يا «تريستاو» بعد أن تنظف يدك من الحلوى، يمكنك أن تسلم على «جين» وتقول لها: إلى اللقاء. بعد أيام قليلة سنعود جميعًا إلى المنزل. وحتى ذلك الوقت عليك أن تكون لطيفًا مع «فيليسيا».

نظر «تريستاو» إلى والده برصانة مما جعل قلب «جين» يتدفق بشعور غريب. لم يعرف الصبي أمه، يمضي أحيانًا بعض الوقت عند «خالات» هنّ صديقات والده، وهو الآن يستعد لقدوم رفيقة تهتم به مكان الوالدة التي يفتقدها. لا أحد قادر على معرفة ماذا يجول في خاطر هذا الصبي الصغير. نهض الصبي وغسل يديه بماء الساقية ثم نفضهما لتنشفا تحت الشمس. وتوجه نحو «جين» ومدّ يده يسلم عليها بعدما عرج على ساقه المريضة.

– إلى اللقاء يا آنسة. في الحال، أمسكت «جين» بالصبي وداعبت وجنتيه بخفة وقالت:

– نعم، إلى اللقاء يا «تريستاو». رافقت «فيليسيا» «الدوق» و «جين» حتى وصلا إلى السيارة، بينما كان «تريستاو» مازال يأكل الحلوى ويداعب الهرّ الأبيض، كان غاضبًا على نفسه، لأنه أظهر عاهته. قرب السيارة الرمادية، قبّل «الدوق» يد «فيليسيا» الناعمة قائلا:

– إنني مدين لك للعناية التي تقومين بها تجاه «تريستاو»، إنك لطيفة معه، حتى ولو أنك أحيانًا غير لطيفة معي.

– يمكنك أن تتحمل ذلك، وجهت «فيليسيا» ابتسامة خفيفة إلى

«الدوق» قائلة:

– صحيح أنني أعرفك منذ زمان بعيد، لكنني ما زلت غير قادرة على أن أفهمك كليًا يا «بيدرو». من جهة تكون ذلك الإنسان اللطيف واللبق ومن جهة أخرى... هزّت كتفيها الجميلتين وألقت نظرة سريعة إلى «جين» التي جلست في مقعد السيارة الأمامي، تاركة «الدوق» و«فيليسيا» يودعان بعضهما البعض. وساور «جين» الشك في أن السيدة «فيليسيا»، على الرغم من كونها امرأة متزوجة، لا شك في أنها معجبة بـ«الدوق» أكثر مما يجب. كان يبدو على «جين» أنها مستغرقة في حلم بريء، بينما كانت هي تفكر في أن «بيدرو دي زاتو» رجل رهيب، بكل برود أعصابه يأسر القلوب، وتساءلت «جين» عمّا إذا كان قد وهب قلبه لامرأة ما...

– إلى اللقاء يا آنسة «داير». كانت السيدة «دي إيفانجيل» تنظر إلى «جين» بفضول لكن دون عداوة، ربما لأنها لا ترى فيها الفتاة المنافسة، ولأنها تغار على راحة وسعادة «تريستاو».

– شكرًا، هذا من لطفك يا سيدتي. ابتسمت لها «جين» وهي تشير بيدها. دارت السيارة بتمهل وابتعدا عن المنزل. وانطلقت السيارة لوقت غير قصير وهما صامتان. وفجأة بدأ «الدوق» بالكلام:

– إذًا اتفقنا. أنا سعيد بأنك وافقت على عرضي. ما رأيك في السيدة «إيفانجيل»، هل أعجبتك؟

– نعم، إنها لطيفة جدًا وجمالها ساحر وجذّاب.

– «فيليسيا» كانت صديقة والدة «تريستاو» منذ ولادته، وكما سبق وقلت

www.rewity.com

لك، كانت ممرضة قبل أن تتزوج.

– وا... والدته؟ – كانت أنفاس «جين» متقطعة – لكنني اعتقدت أنها...

– أنها ماتت؟

– نعم، شيء طبيعي.

– لماذا تقولين إن ذلك طبيعي؟ إنها شابة وإنجاب طفل لا يؤدي بالضرورة إلى الموت.

– إذًا يا سيدي، أنت مازلت بلا زواج... ارتبكت «جين» في إجابتها. قال «الدوق» بصوت بطيء:

– نعم مازلت رجلا عازبًا وذلك بسبب المرأة التي هجرتني. ماذا يا آنسة «داير»، هل تشعرين بالصدمة حقًا، أن يكون للرجل ولد دون أن يتزوج؟ لا أعتقد أنك تفكرين في مثل أولئك الذين يدينون الرجل والمرأة عندما يطلقان العنان لغرائزهم قبل أن يبارك زواجهما. لاشك في أن الحب القوي موجود ولا يأبه بالحشمة أو التعقل... ليس من الضروري لرجل أن يتزوج والدة ابنه ليصبح أبًا... ربما يبدو ذلك لغزًا، هناك جواب... لكن هذا لا يعنيك! أخذت السيارة منعطفًا ضيقًا. وكان البحر يبدو مضاء بشمس المغيب والسماء برتقالية اللون وجميلة، ينعكس نورها على وجه «الدوق» الأسمر الذي لا يتبدل. هذا الرجل قادر على أن يكون قاسيًا مع امرأة بقدر ما هو قادر على أن يكون طيبًا مع طفل. كانت السيارة تسير بسرعة بمحاذاة الشاطئ الصخري المنحدر أو تجتاز خاصرة التلال المستديرة.

وكانت يدا «جين» تشدان على بعضهما البعض وقلبها المضطرب يخفق بسرعة. والدة «تريستاو» مازالت على قيد الحياة، لكن «الدوق» قد فضّل أن تحلّ «لارين» مكانها. قال «الدوق»، إنه لغز معقد وتشعر «جين» بأنها غير قادرة على حلّه. الجواب الوحيد المحتمل هو أن «بيدرو» يكره اليوم المرأة التي أحبها في الماضي... لقد أبعد والدة «تريستاو» عن حياته، لكن ذلك لم يمنعه أن يحب ابنه إلى حدّ احتمال الشائعات وقبول سمعة الرجل الفاسق نتيجة هذه العلاقة. و «جين»، التي تجهل كل شيء عن المغامرات العاطفية، لم يصدمها حب «الدوق» لمن هو من لحمه ودمه. لكنها متأثرة من استهتاره بسعادته الشخصية ومن قساوته الشرسة تجاه المرأة التي أنجبت «تريستاو».

– أمازلت تترددين، أيتها الفتاة المحتشمة، فيما يخص مركزك في منزلي؟ هل أنت الآن ناقمة على «تريستاو»؛ لأنه ولد من علاقة غير شرعية؟ أجابت «جين» بصوت ساخط ومتألم:

– لا، لا يحق لك أن تتكلم معي بهذه اللهجة...

– عندي جميع حقوق رب العمل. كل شيء كان يبدو لك عاطفيًا ما دمت تفكرين في أن والدته توفيت. أفاقت عندك روح الفضيلة؟ أجابت «جين» باحتجاج:

– أنت الذي تتصرف بقساوة معي. من الطبيعي الاعتقاد أن والدة «تريستاو» ماتت. وأكون فتاة حقيرة إذا تصرفت بعدائية مع ولد لأي سبب ما. أنا أحب ابنك كثيرًا يا سيدي، وواثقة جدًا برغبتي في أن أكون رفيقته. سألها «الدوق» بنبرة سخرية وهو يشعل ضوء السيارة

www.rewity.com

الداخلي مما أنار وجه «جين» الشاحب والمتعب:

– لماذا إذًا هذا الشجار؟ لن أفرض عليك سوى شيء واحد وهو أن تكبحي فضولك فيما يخص والدة «تريستاو». لا تسألي أيّ سؤال عنها، وباختصار، عليك أن تستمري في الاعتقاد أنها لم تعد حيّة.

– نعم يا سيدي... هل يجب أن أطلب إذنًا للعمل في «البرازيل»؟

– كلا، هذا غير ضروري. بالنسبة إلى السلطات الرسمية، أنت ضيفة عندي وإذا كنت أدفع إليك راتبًا لاهتمامك بـ «تريستاو»، فهذا لا يخص أحدًا غيري.

– لكن، سيدي، إنني لا أفهم. كنت أعتقد أن عليّ طلب إذن بأنك توظفني عندك والسلطات الرسمية على علم بأني دخلت «البرازيل» وأنا أحمل القليل من المال.

– أنا «الدوق المنذور دي روس زاتو»، وحتى في «البرازيل» لا يوجد رجل مثلي يتمتع ببعض الحرية. لست مصرًا على أن تقولي للسلطات عن عملك لديّ، يكفي أن تكوني ضيفة... ربما تخشين أن يظنك الناس عشيقتي؟ احمر وجه «جين» وشعرت بجرح عميق في داخلها من جراء هذا السؤال. لولا أن صورة «تريستاو» مازالت تلازمها، لرفضت قبول عرض «الدوق». قال في مزاح ممزوج بالسخرية:

– لماذا لا تقولين إنني رجل شرير وتوتاحين؟

– أنت رجل شرير، خلاصك الوحيد هو حبك لـ «تريستاو»، من أجله فقط قبلت عرضك. كانت أسنان «الدوق» تلمع ببريق شرس، وفهمت «جين» أنه لم يسبق له أن سمع أحد موظفيه يكلمه بهذه اللهجة وهذه

الحرية. كانت السيارة تسير نحو أضواء المرفأ. وتساءلت «جين» كيف سيتصرف معها «الدوق» عندما تبدأ وظيفتها وبعد أن تكون قد خسرت كل اتصال مع قريباتها. ستعتقد «مادج» أن «جين» تلاحق «الدوق». وعلى هذه الفكرة، احمرّ وجهها وعضّت على شفتها. هل هذا ممكن؟ هل هي حقًا تخضع لميول قلبها الذي يشدها نحو «الدوق» أكثر من انشدادها نحو ابنه؟ توقفت السيارة أمام الفندق حيث تقيم «جين» وبادرها «الدوق» بنبرة متوعدة:

– «جين»، لا يجب أن نخيّب أمل «تريستاو» مرّة ثانية، وإذا غادرت سرًا مثل ابنة عمتك، سأكون محتدًا هذه المرّة. وعندما أغضب، تصبح حياة الذي يعارضني جحيمًا. هل تفهمين ما أقصده؟ أجابت «جين» بهدوء:

– أعتقد أنك تتمتع بنفوذ ذي شأن كبير، وأنني متعجبة، كيف أنك سمحت لـ «لارين» أن تتخلص من قبضتك؟ فلديها الكثير لتعطيه، أكثر مني.

– أنت فتاة شديدة العاطفية، أعتقد ذلك يا آنسة «داير». تعتبرين أن الرجل والمرأة يتزوجان فقط إذا أحبّا بعضهما البعض حبًا مجنونًا. وإلا أصبح الزواج بالنسبة إليك شتيمة، أليس كذلك؟

– نعم، بالفعل سيدي. فجأة أمسك «الدوق» يد الفتاة التي كانت تحاول فتح باب السيارة، واقترب منها حتى أنها خافت منه. كانت عينا الرجل تحدقان إلى عينيها وكأنه يريد أن يسحرها.

– أرجوك! يجب أن أعود إلى الفندق، إنني أشعر بالتعب...

www.rewity.com

– نعم، أنت متعبة، وقلقة وخائفة باستمرار أن تعيشي حياتك الخاصة. أنت لغز يا آنسة «داير». لو كنت أكثر لطفًا، لكنت سمحت لك بالعودة إلى حياتك الماضية القاسية الخالية من أيّ خطر ومن أيّ رونق كذلك. لكني لست رجلا طيبًا ودافعي الوحيد هو الانتقام، كما أشارت «فيليسيا» في حديثها. ماذا ستفعل «مادج» دونك يا «جين»؟

– إني... أعتقد أنهما سيتدبران أمرهما. شعرت «جين» بالخدعة، وأنها سجينة عينيه الذهبيتين، وفجأة شعرت بالخوف من أن يكشف حقيقة أحاسيسها من نظرته إليها. فأشاحت بوجهها. ثم قالت:

– هل تسمح لي بالذهاب الآن يا سيدي؟ كان النهار مرهقًا. وأنت على موعد مع بعض رجال الأعمال، أليس كذلك؟

– هذا صحيح. نعم إنك تذبلين كزهرة الشمال المعرضة للشمس الاستوائية. زهرة بيضاء أوراقها خضراء داكنة. يمكنك الذهاب الآن وهذا بعض المال لكي تحاسبي صاحب الفندق غدًا. اصفر وجه «جين» وعضت على شفتها. فعليها قبول هذا المال وأخذ «الدوق» يدها واضعًا فيها بعض الأوراق النقدية.

– ستأتي سيّارة إلى الفندق نهار الخميس بين الساعة الثامنة والتاسعة صباحًا، لتأخذك إلى «فيلا الصخرة»، كوني حاضرة يا آنستي. ومن ثم تذهبين إلى المطار خارج المدينة وأنت و «تريستاو» تأخذان الطائرة إلى «الصقر الذهبي». سألت «جين» وصوتها يرتجف:

– أهذا بعيد... كل البعد؟

– حيث يصب «الأمازون» في البحر، حيث تلتقي الغابة بالأدغال. نزل

من سيارته، ورافق «جين» حتى مدخل الفندق قائلا:

– ليلة سعيدة، «جين». ابتسم لها ابتسامة سريعة قبل أن يعود إلى سيارته، التي ابتعدت بصمت وهدوء في الليل.

– 6 –

شيء غريب لا يصدق أن يعبر هذا الجهاز الفاخر الجوّ الفضائي بهذا الهدوء الساكن... ليس في داخل الطائرة الخاصة مقاعد مفصولة بممر وسطي، كما هي الحال في الطائرات العادية. إنما داخلها قاعة استقبال تحتوي على مقاعد مريحة. وطاولات صغيرة. وسجادة رقيقة مفروشة على الأرض... الموسيقى تنطلق من المذياع. وعلى إحدى الطاولات المنخفضة وضعت بعض المأكولات المتنوعة: من الدجاج البارد والخبز والزبد، والفاكهة والمرطبات المنعشة.

كان «تريستاو» يقرأ كتابًا مصورًا بالرسوم، ويشرب قدحًا من الحليب (اللبن) الممزوج بفاكهة التفاح. أما «الدوق» و «جين» فكانا يشربان القهوة البرازيلية. ومن نافذة الطائرة راحت «جين» تتأمل الغابة. إنها بلاد خضراء غنية، حيث يجري وشاح من المياه العميقة يلمع سطحها كمعدن مذاب. ومن وقت إلى آخر تخترق الطائرة الغيوم، حيث لا يظهر شيء، إنه شعور غريب وممتع.

لقد تركت «جين» كل شيء تعرفه، خلفها بعيدًا. وها هي طائرة «بيدرو دي زاتو» الخاصة تأخذها إلى مكان آخر وإلى حياة جديدة وبعيدة أيضًا.

www.rewity.com

في سلة المهملات، في غرفة الفندق، برقية أرسلتها «مادج ديسموند». وقرأتها «جين» في الصباح نفسه. كانت تأمر فيها «جين» بالعودة حالا، فشعرت «جين» بالذنب وراحت تذرع أرض الشرفة، ذهابًا وإيابًا، متسائلة مرّة أخرى، ما إذا كانت قد اختارت الطريق الصحيح، وهي الآن في الطائرة تتساءل عما إذا كان قرارها النهائي ناتج من خوفها من «الدوق»، أو نابع من اختيارها الشخصي.

لقد سبق أن قام «تريستاو» بهذه الرحلة من قبل، وهو شغوف بقراءة مغامرات «طرزان»، لكن «جين» تعي في كل لحظة وجود «الدوق» بقربها، وتشعر بسحر الرحلة. العالم من فوق يبدو لها شديد الغرابة والجمال... قال «الدوق» وهو ينحني لرؤية ذلك العالم الذي يخصه:

– قرب الجداول، تتمدد التماسيح السوداء في الوحل. عيونها تشبه شذرات الذهب المطمور في الصخر، إنها حيوانات بدائية، لا تتمتع بجمال الحيوانات الأخرى الموجودة في الغابة، وهي أيضًا حيوانات متوحشة للغاية. وسألت «جين» «الدوق» وهي لا تجرؤ على أن تدير رأسها إلى الوراء خائفة من رؤية عينيه السوداوين اللتين تثيران فيها جميع المخاطر والمخاوف المتوقعة في هذه الحياة الجديدة التي تجرأت على خوضها.

– أليس الأسد والنمر أيضًا من الحيوانات المتوحشة؟

– فقط إذا كانت هذه الحيوانات جائعة، أو مريضة. يبدو أنك تجهلين أن مثل هذه الحيوانات هي أقل توحشًا من أولئك الرجال الأنانيين، الذين لا ينظرون بحنان إلى العذابات الجسدية والنفسية التي يعانيها

غيرهم من الناس... يعمل لديّ بعض الهنود من قبيلة «المایاس»، أرجوك ألا تخافي منهم. مع مرور الزمن تتعودينهم ويصبحون أصدقاء لك. في البداية سينتابهم القليل من الشك. إنهم رجال من جنس عريق، منعتهم من أن يصبحوا مدنيين. إنهم ينتمون إلى هذه البقعة من العالم، والمدينة تحط من قدرهم، يتمتعون بجمال وصدق وإخلاص. فهم أسلاف «المایاس» الذين كانوا يعيشون هنا عندما رست المراكب الأولى الآتية من العالم القديم... لا شك في أنك تحبين المطالعة والتاريخ؟

– نعم، بعض أسلافك كانوا يتمتعون بشراسة متوحشة يا سيدي.

– حقًا.. وأنا أعترف بذلك. أما المغامرون الإسبانيون الذين غزوا «أمريكا» فلم يتصرفوا دائمًا كما يرغبون. ألم تقرئي عن الدوق «بيدرو» الذي أرغمه «المایاس» على شرب الذهب المغلي؟ ارتجفت «جين» لدى سماعها ما قاله. وأغمضت عينيها تتخيّل هذه الصورة التي رسمها «الدوق». وإذا بـ«الدوق» يفهم ما يدور في مخيلتها ويقول وهو يبتسم:

– لا شك في أنك تتمتعين بمخيلة خصبة يا «جين». وللأسف أنك سمحت لها أن تبقى مسجونة طيلة هذه السنوات الماضية، هيّا اشربي قهوتك وتعلمي أن تحبي الحرية. سألت «جين»:

– هل أنا حقًا إنسانة حرّة؟ عندما أنظر إلى عالمك يا سيدي أشعر بقفص بين البحر والجبال، يخيفني بعض الشيء.

– إن ما يخيفك أكثر من كل شيء، هو جرأتك على التخلص من القفص الذي كنت مسجونة فيه عند عمتك، من أجل أن تحلّقي وراء الشمس أرجوك أن تنسي آل «ديسموند» يا «جين».

– هل هذا أمر يا سيدي؟

– كما تريدين.

– أنت تتكلم بصورة مطلقة، كأن «لارين» لم تكن تعني لك شيئًا.

– يا فتاتي العزيزة، إن ابنة عمتك جميلة وربما تستحق مكانًا في مجموعة الأشياء النادرة. لكن ذلك لا يعني أنها تملك القدرة على أن تجعل الرجل ينسى بقية النساء... هذه القدرة التي نسميها الحب، على ما أظن... الحياة جعلتني إنسانًا وقحًا، ومع ذلك مازلت أعتقد أن الحب الحقيقي، النادر، لابدّ من أن يعبر طريق الإنسان ولو مرّة واحدة في حياته وبسحر نظرة واحدة، أن يحتلّ قلبه.

– لا يمكن أن تكون فخورًا لأنك أردت امتلاك «لارين» كأنها تحفة تضاف إلى مجموعتك.

– أنت قاسية جدًا يا «جين». أحيانًا أظن أنك ترغبين في ضربي بالمسطرة على أصابعي. سألت «جين» وفي عينيها نظرة ساخطة:

– وإلا، لتزوجتها دون... دون حب؟

– أعتقد ذلك يا «جين»، ولكي أشكر «لارين» على إرسالها من ينقذني منها أرجعت لها المجوهرات التي كانت تناسبها جدًا. إنني متأكد أن ذلك يساعد آل «ديسموند» على التخفيف من آلامهم بعد هجرك لهم. وكما يقال: «الألماس أعزّ صديق للمرأة».

– آه، يا سيدي، أنت وقح للغاية!

– إلى هذا الحد؟

– لا تسألني يا سيدي، أنا لا أعرف مدى خطاياك.

– ولا أهمية فضائلي؟

– صحيح. إنها تعترف بأن «الدوق» يتمتع ببعض الفضائل وتأكد لها ذلك بعدما ألقت نظرة سريعة إلى «تريستاو». إن رجلا بمقامه لا شك في أنه يكتم سر ولده. أو ربما يساعد على تربيته خفية، لكن «الدوق» اختار الاعتراف به والمحافظة عليه بقربه في معظم الأحيان. إنه أب صالح. قال «الدوق» بسخرية:

– أنت، بالطبع، لا تتمتعين إلا بالفضيلة. وبما أنك قديسة، تتصورين أن لك الحق في أن تعظي رجلا يبدو لك شيطانًا بحد ذاته. هل في نيتك إرشادي إلى الطريق الصحيح وجعلي إنسانًا صالحًا؟ أجابت «جين» قائلة:

– أعتقد أن عملي لديك أن أكون رفيقة لـ «تريستاو»، لا أن أكون مرشدتك. تغيّرت ملامح «الدوق» بشكل خفيّ: تصلب فمه وعبر في عينيه تعبير بارد.

– حذار، لا أريد أن أغضب، أنا أعرف جيدًا أنني إنسان وقح، لكن لا أريد أن أسمع ذلك على لسانك. أنا خبير بالحياة والناس وأعرف كيف أعجب بفتاة فاضلة؛ لأن الفضيلة في هذه الأيام شيء نادر، كالألماس الأزرق. ولهذا السبب شئت أن تكوني على اتصال مع «تريستاو». لم يخطر ببالي قبل أن أتعرف إليك أن «تريستاو» يحتاج إلى فتاة تكون رفيقة ومعلمة وممرضة. توقف برهة عن الكلام وهو يحدق إلى «جين» بإمعان وراح يردد:

– يا إلهي لا أريد أن أغضب. أنت يا «جين»، لست سوى تلميذة

www.rewity.com

ما زالت تنقصها دروس في الحياة. ومن العجب أن تكون حذرة مني.

فجأة ابتسم «الدوق»، ولمعت أسنانه البيضاء. ثم قال:

– عندما تلتقي القديسة بالشيطان، يصير هناك كبريت في الجوّ هل تتفقين معي؟

– نعم. ابتسمت «جين» خجلا وهي تنظر من نافذة الطائرة. وكانت الأدغال تبدو لها أقلّ توحشًا من «الدوق» نفسه. أحست بقشعريرة تسري في عروقها.

– أما زلنا بعيدين عن «الصقر الذهبي»؟ أجاب بهدوء:

– إلى حيث يطير الصقر. ثم وجه كلامه إلى «تريستاو»:

– تبدو معجبًا كثيرًا بهذه القصص المصورة. لست متأكدًا أنني على حق في السماح لك أن تقرأ هذه القصص السخيفة.

– إنها ليست سخيفة يا أبي. ورأت «جين» الوالد والولد يتطلعان إلى بعضهما البعض برصانة.

– إني أقرأ مغامرات «طرزان» الذي كان يعيش في الأدغال. كان يعرف لغة جميع الحيوانات كان نبيلا مثلك يا أبي. وفي لحظة، أصبحت ابتسامة «الدوق» متسامحة. إنه حقًا رائع مع ولده. ويمكن أن نرى النبل والأصالة عند الأب والابن معًا. «الدوق» إنسان مثقف غريب ومتغطرس. قال «الدوق»:

– وذاكرتي لم تخنني... فإن «طرزان» الشجاع يحب التأرجح على الأشجار. لا يجب عليك أن تقلده، حتى ولو علمتك الآنسة «داير» أن تموء كالهرّ. نظر «تريستاو» إلى «جين» وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة

وقال:

– زوجة «طرزان» تدعى «جين». يعيشان في منزل داخل الأدغال، أصغر من «الصقر الذهبي»، بالطبع، إني متأكد أنك لم تري منزلا مثله من قبل. فيه مخابئ ودهاليز وبرج. لكنني كنت أفضل ألا يكون هناك أدراج لولبية، إذا تسلقتها تؤلمني ساقيّ، إلا عندما يحملني أبي على كتفيه. عاد «تريستاو» إلى قراءة كتابه. وخيّم الصمت. ألقت «جين» نظرة خاطفة إلى «الدوق» ورأته مستغرقًا في أفكاره. بذل الأطباء جهدهم في معالجة «تريستاو» كي يشفى بصورة كاملة، لكن الجرح كان خطيرًا مما أدى إلى إبقاء هذا العائق الدائم. كان هذا الحادث صفعة مؤلمة بالنسبة إلى «الدوق» الذي يتمتع ببنية جيدة، فلا شك في أنه كان يرغب في أن يشبهه «تريستاو» كل الشبه، في كل شيء.

كانت «جين» ترى أن «تريستاو» ولد جميل وهادئ لكنها كانت تعتبر أنه، حتى لو لم يكن معاقًا، فلن يكون كوالده، ضخمًا ووقورًا. ليست ملامحه متناسقة وذات تأثير كبير. عندما يكبر الولد سيصبح رجلا هزيلا ولطيفًا. لكنه لن يتمتع بقدرة والده على الإغراء، ولا حتى بنفوذ شرس. لا شك في أن «تريستاو» ورث عن والده النعومة والحنان فقط فـ«الدوق» يعتبر «تريستاو» نصفه الجيد، فيحبه، ويعتني به ولا يفكر في والدة «تريستاو» كأن الأمر لا يعنيه.

المرأة التي أحبت «بيدرو» وأنجبت هذا الولد الحساس الذكي توقظ في نفس «جين» فضولا بالغًا. وعلى الرغم من تحذير «الدوق» فهي تحب أن تعرف، إذا كانت والدة «تريستاو» امرأة جميلة، وكيف انتزعها من

www.rewity.com

قلبه بهذا الشكل الكامل؟ ثم وكأنها خافت أن يقرأ «الدوق» أفكارها، أدارت وجهها صوب النافذة وراحت تتأمل المنظر أمامها.

فجأة لاحظت غياب الأشجار الكثيفة التي حلت مكانها الرمال الحمراء الممتدة مساحات واسعة، حيث يزرع البن. وارتجف قلب «جين» لرؤية هذا المنظر المؤثر، التلال المزروعة بنًا وبجانبها تلال قصب السكر. مزارعون يهتمون بالحقول ويرتدون قبعات من القش لحمايتهم من حرارة الشمس اللاهبة.

وشعرت «جين» بقلبها ينفتح أمام هذا الجمال المتوحش. وحدقت إلى المنظر بقوة، فهي تريد أن تحفر في ذاكرتها صورة أرض الدوق «بيدرو» التي لها صلة بتاريخ مليء بالإقدام. ومهما كانت شراسة هؤلاء الرجال الذين يكتشفون هذا العالم الجديد، لقد أظهروا شجاعة وجرأة لا تصدق. و «جين» لم تقدر على أن تمنع نفسها من التأثر أمام كل شيء متوحش وحرّ. وراحت تتساءل أيضًا عن إمكانية حدوث تنازع بينها وبين الرجل الذي يسيطر على الأدغال، تلك الغابة التي تناضل ليل نهار ضد اجتياح مزروعات البن وقصب السكر. شعرت «جين» بلهب في عنقها، فهمت في الحال أن «الدوق» ينظر إليها.

– نحن الآن فوق مزروعات البن، أليس كذلك؟

– نعم يا سيدي، إنه لمنظر رائع للغاية!

– أنا سعيد لأنك تحبين المنظر بعد قليل سنصل إلى مدرج الهبوط. اجلسي جيدًا واحكمي إغلاق الحزام. وقف «الدوق» ليوثق غلق حزام «تريستاو»، ثم ألقى ابتسامة سريعة نحو «جين».

– يبدو عليك الخوف. هل هبوط الطائرة يوترك؟ أم لأنك تشعرين فجأة بأنك بعيدة جدًا عن بلادك؟ أجابت «جين» وشفتاها ترتجفان:

– أنا بعيدة عن «إنجلترا». إن نصف العالم تقريبًا يبعدنا عنها، ويجب الاعتراف أنني غير واثقة بنفسي.

– بعد أيام قليلة تشعرين بالثقة. نسيت أن أسألك، إذا كنت تحتاجين إلى بعض أغراضك من «لندن»؟ فكرت «جين» في غرفتها الفارغة تقريبًا، في شقة «مادج». في خزانة الثياب بعض الفساتين ومعطف للشتاء، لكن القسم الأكبر مما تملكه موجود في حقيبتها. خفضت «جين» عينيها، وأجابت «الدوق» أنها كانت تعيش مع عمتها ولا تملك شيئًا لنفسها. سمعت «جين» صوت الأزيز الذي أحدثه حزام الأمان. وأحست أنها على وشك الانفجار بالبكاء. وللحظة واحدة شعرت بأنه بدأ يتقرّب إليها ويستلطفها... هو الإنسان الذي يرضي جميع أهوائه.

بعد نصف ساعة كانت «جين» تشعر أيضًا بالتوتر من جراء هذه الرحلة. وتجلس في المقعد الخلفي، من سيارة الجيب، قرب «تريستاو» وكانت السيارة مسرعة، و «تريستاو» يشير بإصبعه إلى بعض التفاصيل هنا وهناك في الساحل المتعرج الذي يؤدي إلى «الصقر الذهبي». أحست «جين» بأن «الدوق» يغير سرعة السيارة، التي بدأت بالصعود، والشواطئ الصخرية الوعرة تشرف على رقعة ضيقة وبارزة من الرمل، يلفحها الزَّبد الأبيض. نباتات غريبة تَعْلق بعجلات الجيب. أوراق تتساقط من الأشجار وتلويها حرارة الشمس مثل منجل كبير وكلما صعدوا أصبحت المزروعات أكثر كثافة، إلى أن ظهرت فجأة الأسوار

الحجرية، والدعائم الضخمة من السياج، مما يشير إلى مداخل البيوت في «أمريكا اللاتينية».

العصافير تغرّد ومن الصعب لمحها من كثافة الأشجار المحيطة بالمكان. والطريق تتعرج مثل نفق معتم. ولما دخلت السيارة في العتمة. ابتسمت «جين» وأمسكت بيد «تريستاو». وبدأ قلبها يخفق، لأنه بعد قليل... سيظهر الضوء، وستصل إلى «الصقر الذهبي». وركزت نظرها في الكتفين العريضتين، والرأس الأسمر الأبيّ. ترى بماذا يفكر في هذه اللحظة؟ هل هو نادم لأنه اصطحب إلى بيته رفيقة بدلا من زوجة له؟ وبعد أن قطعت السيارة طريقًا متعرجة، استدارت يسارًا، وهنا حبست «جين» أنفاسها. فعبرت السيارة تحت قبة هائلة قبل أن تنفذ إلى ساحة المنزل القائم على تلة فوق مستوى البحر، تحيطه الأدغال.

فوق الساحة درجان متوازيان يؤديان إلى شرفة من البلاط، مثبتة بركيزتين حجريتين تؤلفان قبة الرواق. وهذا النوع من البناء يعم «أمريكا اللاتينية». الحجارة والحديد المصنوع مشغولان بطريقة رائعة. وفي الوسط صقر من البرنز يرفع منقاره الفولاذي، باسطًا جناحيه الكبيرين.

الصقر الذهبي، المنحوت داخل حجر من الصلصال يبدو ذهبيًا حقًا، لكنه مغطى بالنباتات المتسلقة، ويجثم على هضبة واسعة طليقة.

نزلت «جين» من السيارة وهي مذهولة. طبعًا كانت تستعد لرؤية شيء من العظمة، لكنها لم تفكر في أن يكون المكان مدهشًا هكذا. وامتلأ عقلها بالصور: صورة المغامر الإسباني الذي بنى هذا المكان، والمرأة الرائعة التي عبرت المحيطات لتسيطر على هذا المكان. على مرّ السنين، استقبل

هذا المنزل نساء كثيرات، لكن «جين» شعرت بأن أبواب المكان المنحوتة لم تكشف عن وجود غرف كثيرة محمية بمصاريع خشبية منحوتة. والآنية الخزفية منتشرة ومختلفة الأحجام، والخبيزة الوردية... كانت «جين» تنظر، مسحورة، بكثرة الأزهار الليلكية. وتساءلت أية امرأة زرعت كل هذا؟ سألها «الدوق» بلغة برتغالية سهلة:

– هل أنت سعيدة بوجودك هنا يا آنسة؟

– نعم، سعيدة جدًا، يا سيدي. رفعت عينيها نحو «الدوق» وقالت:

– كيف يمكن ألا نحب «الصقر الذهبي» إذا تمتعنا بقليل من المخيلة؟

– صحيح، لكن عليّ أن أعرف ذلك. الإنسان الوحيد يحب البيت المنعزل... وكما ترين، فأقرب الجيران، المحيط والغابة. قالت بصوت منخفض:

– أزهار كثيرة، مأخوذة من النباتات البرية الموجودة في الأدغال: ورد سحلبيات... وكلها غالية الثمن في «لندن».

– ها هي زهرة مجانًا. مدّ «الدوق» يده وقطف زهرة من شجرة النخيل التي تعطي أغصانها هذه الأزهار الغريبة والجميلة. أعطاها لـ «جين». انسحرت «جين» وهي تتأمل أوراقها الحمراء المرصعة بشذرات من الذهب. إنها ناعمة كالمخمل، لكن لا رائحة لها. تريد حماية جمالها من الحشرات والفراشات. وأخذت «جين» الزهرة من يد «الدوق» وتبعته مع «تريستاو» صوب الرواق المؤدي إلى المنزل. لن يعرف «بيدرو» أنها ستضع هذه الزهرة في دفتر مذكراتها والاحتفاظ بها مدى الحياة، وذلك كتذكار ليوم وصولها إلى «الصقر الذهبي» هكذا قدّمت إليه قلبها

www.rewity.com

إلى الأبد.

تحت دعائم الحجارة المنحوتة، برز بعض الخدم فجأة يرتدون البذلة البيضاء ويسيرون بصمت. انحنوا أمام «الدوق» و «تريستاو»، ومرّوا أمام «جين» كأن لا وجود لها. اثنان منهم ذهبا ليحملا الحقائب من السيارة. والثالث الذي كان وجهه الأسمر يشبه محاربي «الإينكاس»، بقي يتحدث مع «الدوق» الذي يعطيه الأوامر. لم يتحدثا باللغة البرتغالية. وفجأة تطلع «الدوق» صوب «جين» قائلا:

– «جين»، أقدم لك «بريميتيفو»، وهو يسهر على تنظيم المنزل وسيتأكد أن لديك كل ما تريدين. كان عمره سنتين عندما جاء إلى «الصقر الذهبي». قتل الأسد أمه، فاضطر والدي إلى قتل الأسد وعندما كنت صبيًا كنت أركب مع «بريميتيفو» باخرة صغيرة وننزل إلى مصب النهر حيث تتدفق المياه بسرعة. أنت تحملين في يدك سحلية صغيرة جميلة، لكن «بريميتيفو» يعرف أين توجد السحلية الكبيرة البيضاء «لاكريستالا». إن الهنود الذين يعملون لديّ ليسوا متوحشين كما يبدون لك. فهم رجال بسطاء ولطفاء. في البدء سيتصرفون كأنك غير موجودة. هذا موقفهم من النساء... هل تفهمين؟

– بالتأكيد. وجهت «جين» ابتسامة إلى الهندي الكبير ذي الوجه الرصين، وأجابها بنظرة من عينيه السوداوين، نظرة كانت تلين شيئًا فشيئًا. كان سواد عينيه يلمع كالأطلس الأسود. ونظر «بريميتيفو» إلى «تريستاو»، ثم إلى «جين» من جديد، وفكرت الفتاة في أنه يعتبرها صغيرة حتى تكون رفيقة «تريستاو». وجه «الدوق» الحديث إلى خادمه

الهندي بلغة لم تفهمها «جين»، فإذا بالخادم ينسحب بهدوء. فتح «بيدرو» الباب الزجاجي لقاعة الاستقبال. ودعا «جين» إلى الدخول وهو يلفظ الكلمات التقليدية:

– أهلا وسهلا، البيت بيتك.

– شكرًا. قالتها «جين» بصوت منخفض وهي تدخل إلى غرفة رائعة وفخمة. كانت مفروشة بالبُسط ذات اللون الأسمر الفاتح، وشاهدت المفروشات الجميلة ذات اللون الأسود والذهبي والتي يعود تاريخها إلى عصور الاحتلال.. والأطباق الفضية والخزف الثمين تلقي أضواء وألوانًا على الخشب الداكن. وهنا وهناك على الجدران، لوحات تمثل صور الفرسان وصور القديسين. في إحدى زوايا القاعة كنبة مغطاة بجلود النمور السمراء والذهبية. لولاها لوجدت «جين» أن الغرفة جميلة واحتفالية. وعلى إحدى الطاولات المصنوعة من الخشب البني القاتم علبة سجائر منحوتة. كما لفت نظرها لوحة مصنوعة من الريش تظهر رجلا نبيلا يرتدي معطفًا براقًا. وعصفورًا مذهبًا بمثابة تاج ملكي. لاحظ «الدوق» «جين» تتأمل هذه اللوحة فاقترب منها وقال:

– هذه اللوحة كانت موجودة في «دير اليمامة النائحة»، وربما تعرفين كيف دخلت هذه إلى منزلي. إنها من صنع امرأة، وتدل على صبر لم يعرفه عصرنا. إن كل ريشة صغيرة تشبه قطبة تطريز. وهذا كل ما تبقى من قصة حب قديمة. هل يفكر «الدوق» في أنه كان أسعد من سلفه؟ وهو يملك ذكرى حية من الحب الذي عاشه؟ ارتعش قلب «جين» وتساءلت: «هل من الممكن أن تكون والدة «تريستاو» قد دخلت

الدير، هي أيضًا؟ ألم يقل إن تاريخ آل «زاتو» يعود بشكل أو بآخر؟»
وثب كلب ضخم فجأة إلى قاعة الاستقبال وتوجه نحو «الدوق». إنه كلب جميل، وهو رفيق «الدوق» الأسطوري. كان يهز رأسه وأذنيه كلما داعبه معلمه، ويعوي معبرًا عن فرحه لعودته. أخذ «الدوق» يد «جين» فجأة، مجبرًا إياها على أن تداعب رأس الحيوان وقال لها:

– هذا «آرنو»، من البداية أظهري له أنك لست خائفة، وهكذا يصبح صديقك. «آرنو» يشبهني. إنه يحب أولئك الذين يتمتعون بالشجاعة لمجابهة خصمهم. ولمست الفتاة جلد الكلب ووبره المجعد والخشن.

– كيف حالك يا «آرنو»؟ أنت كلب أصيل، أليس كذلك؟ وفمك الكبير قادر على اقتلاع رأسي. ها...

– الآنسة تحبك كثيرًا يا «آرنو». كان «تريستاو» هنا، يداعب الكلب. وبعدما ألقى نظرة إلى «جين»، حدّق الولد بانتباه إلى القامة الطويلة المرتدية اللون الرمادي التي ينظر إليها الكلب كأنها نجمة. ووعده «الدوق» قائلا:

– فيما بعد، تأخذك في نزهة، بعد أن ننزل ضيفتنا الجديدة في منزلنا. تعال يا «تريستاو»، تعالي يا «جين»! سنذهب إلى جناح كل منكما ونرى إذا كانت الأشياء حاضرة لاستقبالكما. لربما أردتما الراحة بعد هذا السفر الطويل. عبروا البهو، و«آرنو» يتبعهم. ثم صعدوا سلمًا جميلا مصنوعًا من الحديد.

– لقد وصلت... فكرت «جين» في تعجب. تهيأ لها أنها تسلك طريقًا ممنوعًا في خطوات امرأة أخرى، لمجابهة قدر ليس قدرها!

- 7 -

كان المكيّف المثبت في سقف الغرفة، يبعث بالهواء المنعش، كما كانت المروحة تلعب بظلالها على جدران الغرفة ذات اللون العاجي و «جين» مستلقية على أريكة منجدة، تستريح من عناء هذه الرحلة الغريبة. بعدما ارتدت مئزرًا مريحًا. والآن في إمكانها الاستمتاع بهذا الهدوء الساكن في داخلها. فقد ذهب «تريستاو» إلى فراشه باكرًا. أثاث الغرفة منحوت من خشب الأشجار المثمرة. وشرفات الغرف تطل على مناظر جميلة يسرح فيها النظر إلى مسافات بعيدة. كما تطل على بركة سباحة كبيرة.

وبينما كانت المروحة تدور محدثة حفيفًا متواصلا، كانت «جين» تتساءل هل «الصقر الذهبي» مزيج ساحر من القديم والجديد؟ وراحت عيناها تستريحان في هذه الغرفة الكبيرة. سقفها المزخرف باللون السكري والذهبي، جدرانها الملبسة بالخشب المذهب، تعلقت عليها لوحات خيول أصيلة وفرسان يرتدون الدروع الفضية. وفي زاوية منفردة من الغرفة، خزانة ذخائر منحوتة وبرج حمام حقيقي يحمل رفوفًا صغيرة، عليها مجموعة من التحف العاجية. هذه الزاوية تضفي على الغرفة سحرًا أنثويًا، في داخلها خزانة كبيرة وسرير واسع مغطى بالقماش المخرّم. دعائمه الأربعة سوداء تحمل منحوتات مؤلفة من وجوه وأوراق شجر وأشخاص.

وتقع الأريكة حيث تتمدد «جين» في منتصف القبة المستديرة لنافذة تطل

على الشرفة المسيجة. وفي آخر باب يطل على حمام مستقل، بشكل دائرة، يحتوي على مغطس مرصع، بلاطه يرمز إلى حب الأمريكيين اللاتينيين للحياة. مصنوعة من البلور الورديّ. وعلى الرفوف قارورات تحتوي على ملح خاص بالحمام، رائحته لا تقاوم. راحت «جين» تتساءل عمّا إذا كانت الشقة قد خصصت لابنة عمتها «لارين». وما لبثت أن هزئت من بساطتها. فهذه الغرفة لا تتصل بغرفة «الدوق». حتى ولو كان «الدوق» ينوي القيام بزواج مصلحة، لما أراد بالطبع أن يلعب دور الأب، بل دور الزوج.

نظرت «جين» إلى أظافر رجليها، ولاحظت أنها غير مطلية كأظافر ابنة عمتها. و «جين» لم تحاول مرّة الاعتناء بجمالها. فالكتاب العادي يلزمه غلاف عادي، وهكذا دفتر مذكراتها الأخضر الموضوع على الطاولة المنخفضة قربها. وفيما يتعلق بذلك النهار الذي لا يمكن أن تنساه، كتبت «جين» فقط أنها وصلت سالمة إلى «الصقر الذهبي» وأنها تنوي قضاء أوقات سعيدة على أن تؤدي عملها بصورة حسنة. حتى في كتابة يومياتها لم تكن قادرة على أن تعبّر عما يختلج في قلبها من مشاعر حميمة. تخاف أن يقرأ أحد ما تكتبه وأن يسخر من «جين داير» الصغيرة، الواقعة في حب رجل ذي مقام رفيع، وغني جدًا ومليء بسحر جنوني. والزهرة التي أعطاها «الدوق» لـ «جين» هي الدليل على هذا الحب... وضعتها داخل صفحات دفترها قبل أن تذبل أوراقها. لا أحد يمكنه أن يعرف أنه قطف الزهرة من أجلها هي. والآن ربما نسي «الدوق» سلوكه اللطيف، ولن يخطر بباله أن تلك الهدية قد أثّرت

في «جين» تأثيرًا كبيرًا، لن تنساه.

وراحت «جين» تفكر في أنه، في المستقبل، ما عليها إلا أن تفتح دفتر مذكراتها حتى تستعيد الزهرة الذابلة رونقها. وهي، حيث يمكنها أن تجد نفسها من جديد في ساحة «الصقر الذهبي» المشمسة إذ شعرت بأنها تنتمي إلى هذا المنزل أكثر بكثير من انتمائها إلى منزل عمتها حيث ترعرعت.

كانت «جين» في أحلام اليقظة، حين انفتح الباب فجفلت، وراح قلبها يخفق بسرعة وهي ترى الرجل، الذي كانت تفكر فيه، يدخل الغرفة. كان يرتدي سروالا أسود وسترة بيضاء يشع بياضها حيال بشرة جسمه السمراء. قال «الدوق» معتذرًا:

– طرقت الباب، لكن لعلك كنت غارقة في النوم. قمت بنزهة صغيرة مع «آرنو» والآن أرغب في احتساء فنجان قهوة. وفكرت في أن أشربه معك إذا كان ذلك لا يزعجك؟ لم يكن بوسع «جين» إلا أن تهز رأسها. لقد انخطف صوتها. حمل «الدوق» كرسيًا من الغرفة ووضعه قرب الأريكة وجلس.

– «تريستاو» الآن في عالم الأحلام. كانت أسنان «الدوق» البيضاء تلمع من شدة نصاعتها. ولاحظ شعر «جين» المشعث ومئزرها الأخضر.

– ستأتي القهوة بعد قليل. هذا البن من جنى أرضنا، وأعتقد أنك تحبينه.

– أنا... أنا واثقة بذلك يا سيدي. وفكرت «جين» في أن عليها الجلوس، ووضع رجليها على الأرض بدلا من أن تبقى ممددة أمام «الدوق». لكن

www.rewity.com

ما إن تحركت حتى دفعها من جديد، بهدوء، على الوسادة. وشعرت بعضلات يده الحارة، فاضطربت بشدة. أمر «الدوق» «جين» بلهجة جافة:

– لا تزعجي نفسك من أجلي. جئت لمعرفة ما إذا كنت مرتاحة هنا ولا ينقصك شيء. هل تحبين هذا الجناح يا «جين»؟

– كثيرًا يا سيدي. ومن نظراتها، فهم «الدوق» أن «جين» لم يسبق أن كان لها غرفة من هذا الطراز. يبدو أن «بيدرو دي زاتو» يفهم ما يجول بخاطرها أكثر من أي إنسان آخر. فكبر الخوف في قلبها: قريبًا سوف يكتشف «الدوق» أنه كان بالنسبة إليها أكثر من مجرد سيد. قال «الدوق»:

– ربما تتساءلين يا «جين» عمّا إذا كان هذا الجناح مخصصًا لابنة عمتك... دعيني أطمئن بالك...

– من غير الضروري، يا سيدي.

– آه! رفع «الدوق» حاجبيه ونظر إلى «جين» بسخرية.

– ليس هناك باب اتصال، أليس كذلك؟ في القصص التي تقرئينها، يوجد دائمًا باب اتصال بين غرفة الزوج وزوجته، مما يجعل الزواج صفقة يراعى فيها العرض والطلب. يابنتي أنت لا تعرفين شيئًا عن رجل من طرازي.

– إني أعترف أن معرفتي بالرجال إجمالا شيء قليل.

– صحيح. دعيني أشرح لك. لو كنت رجلا متزوجًا، لا أقبل بوجود باب يفصلني عن زوجتي. فالاتحاد يفترض المشاركة. أنا لست ذلك

الرجل الذي يطرق باب غرفة زوجته كخادم يستعطي الجميل. آه إن صراحتي تخجلك!

– نعم، وبدأت «جين» تنتظر بفارغ الصبر أن يأتي الخادم بالقهوة سريعًا، لتتحاشى إباحات «الدوق» التي تفرحه، والتي تجعلها تضطرب. ألا يكفيها من عذاب معرفتها أن اليوم سيجيء ويصبح «الدوق» زوجًا لامرأة غيرها، وكم ستتألم عندما يخبرها مفصلا بطريقة حياته مع زوجته، التي ستكون أسعد امرأة بين جميع النساء؟

– إني أنسى دائمًا إلى أي درجة من السذاجة أنت. أجابته «جين» وهي تخفض ثوبها لتغطي رجليها العاريتين، هي التي لم تحلم قط في حياتها أن تكون وحدها في غرفة مع رجل عظيم وجذاب.

– إني سعيدة لأني أفرحك يا سيدي. وسأل «الدوق» وفي عينيه ملامح ساخرة:

– هل تتساءلين إذا كانت براءتك في خطر حيال وجودك معي؟ ورجعت «جين» قليلا إلى الوراء بشكل خفيّ، كأنها تطلب الحماية بالوسادة. وكأنه عرف ما يجول في خاطرها، انحنى «الدوق» إلى الأمام وعلى وجهه ابتسامة وأضاف:

– البراءة، تثير الرجل أكثر من المغامرة والخبرة. لكن يا فتاتي انقضى العمر الذي تشعرين فيه بالفضول حيال الرجال. وتريدين معرفة ما الذي يفرقهم عن النساء... لا أعني الفروقات المنظورة.

– إني... إني لا أشعر بأي فضول تجاهك.

– أنا أؤكد لك العكس.

WWW.REWITY.COM

– هل جئت إلى غرفتي لتحاكم مدى فضولي؟

– حذار يا «جين»، لا تحاولي معرفة إلى أي مدى تصل نياتي.

– هذا يعني أنه يحق لك تشريحي، لكن المطلوب مني، ألا أسألك عن أسباب تصرفاتك هذه؟

– تقريبًا صحيح. لكن يجب أن تتعلمي كيف تثقين بالناس. هل تعرفين يا «جين» أنك تشبهين هرًّا صغيرًا عصبيًّا، في ذيله مقلاة ساخنة... سأعمل كل جهدي لفك القيود التي تعوقك. أجابت «جين» محاولة أن تكون ساخرة:

– هذا... هذا لطف منك.

– لن تعرفي أبدًا مدى لطفي. ليس من عاداتي التوقف في منتصف الطريق من أجل التقاط هرّ متروك. ربما من واجبي أن أمسكك من جلد عنقك وأهزك هزًّا وإذا بـ «الدوق» يحيط بيده عنق «جين» النحيل ويشد بأصابعه تحت شعرها المشعث. كان يمسكها بكل قوته. وشعرت «جين» بأنها ستتألم أكثر إذا قاومته. قال بسخرية:

– يبدو أنك تحبين الخدش والمداعبة. هذا هو الفرق بين الرجال والنساء. صرخت «جين» قائلة:

– القوة الوحشية؟

– أنت حقًّا كتلة أعصاب! كلا، يا قطتي. فالفرق هو أن الرجال والنساء يحبون هذا النوع من العراك، بينما القتال بين امرأتين يكون دائمًا قتالا متعبًا ويؤدي إلى حدوث جروح خطرة. أتفهمين يا «جين»؟ الحقيقة هي أن الرجال والنساء لا يمكن أن يصبحوا أعداء بالفعل؛ لأنه

يمكنهم أن يصبحوا عشاقًا. كانت أصابعه تنسحب من عنقها كسحابة نار. وكان يعرف جيدًا أنه المنتصر في هذه المناقشة. والتفت بلا مبالاة صوب الباب. في هذه اللحظة بالذات سمعت طرقة على الباب. كان الطارق خادمًا هنديًّا شابًّا يلبس بذلة بيضاء ويحمل صينية القهوة. أشار إليه «الدوق» أن يضعها على الطاولة قرب الأريكة. وشعرت «جين» بنظرات الرجل السريعة والفاحصة التي ألقاها نحوها. بأمر من «الدوق» غادر الغرفة بسرعة. راح «الدوق» يشرح لـ «جين» قائلا:

– ستكونين عرضة لفضول جميع العاملين هنا، فبشرتك شديدة البياض... انظري إلى بشرتي، إنها تبدو سوداء بجانبك. ألقت «جين» نظرة خاطفة إلى يد «الدوق» لكنها لم تكن تعي سوى حرارتها وتأثير ذراعه القوية في عنقها. أمرها «الدوق» بلهجة غريبة:

– قدّمي القهوة قبل أن أموت عطشًا. هل مازلت تتذكرين كيف أحبها؟ أجابت «جين» وهي تمسك بإبريق القهوة الفضي حيث حفر الصقر، شعار عائلة «زاتو».

– سوداء، وملعقة سكر. قال لها، في المرّة السابقة عندما شربا القهوة معًا، إنه يحب القهوة سوداء مثل نفسه، لكن «جين» ترى اليوم أن نفسه ليست خالية من المحبة والحنان، وأنه قادر على القيام بأعمال سخية، إن قناعه التهكمي يخفي روحه المرحة وشرفه، وعزة نفسه. سكبت «جين» القهوة وهي تلقي نظرة سريعة إلى «الدوق». وشعرت بصدمة إذ رأته يراقبها في قوة غريبة. كانت عيناه الذهبيتان تظهران بؤبؤين سوداوين، يشبهان العقيق والليل. وقالت «جين» ملاحظة:

www.rewity.com

– يا له من إبريق قهوة جميل! إنه مطلي بالفضة، أليس كذلك؟

– كلا، إنه من الفضة الكثيفة... القديمة، ومن الصنع الهندي والبرتغالي، وهو شغل يدوي. أما سلة الفاكهة فمصنوعة من الفضة والعاج، وكذلك طقم الحلوى أنت تحبين الأشياء الجميلة، أليس كذلك؟ أجابت «جين» وهي تقدم إليه الفنجان وتخفض عينيها لئلا تلتقي بنظرات «الدوق»:

– نعم... إنها ميزة يتمتع بها الناس غير المحظوظين. لم تتعوّد «جين» مزاجه. يجب أن تذكّر نفسها بصورة مستمرة ومن أجل هنائها أن «الدوق» يدفع لها راتبًا مقابل عملها لديه. ولا شك في أنه يلعب دور المحقق الذكي من أجل التسلية فقط. على كلّ حال إن حياته كانت مليئة بالنساء الجميلات الجذابات، وهو الآن يشعر بالفضول أمام نوع آخر من النساء اللواتي يتمتعن بصفات معاكسة، كصورتها التي تشبه الهر الصغير حسب رأي عمتها «مادج» ثم أضافت تقول:

– من شدّة ما يستغني الإنسان عن الأشياء الجميلة، يصبح متطلبًا.

– هذا تناقض مثلك يا «جين». استقر «الدوق» على كرسيه، وبسط رجليه الطويلتين، ثم شرب جرعة من القهوة. ثم استطرد قائلا:

– هل تتذكرين والديك يا «جين»؟ أم أنك كنت صغيرة جدًا عندما توفيا؟

– كنت صغيرة جدًا يا سيدي. ذاقت «جين» قهوتها وأضافت بعض الحليب (اللبن). كانت القهوة شديدة الحرارة ولذيذة الطعم... كماء الحياة!

– إنها لذيذة الطعم، أليس كذلك؟ رآها تغمض عينيها للحظة تستمتع بجرعتها تمامًا.

– إن ما يجعل الحياة ذات أهمية كبيرة لا يتمّ في لحظة واحدة، إنما يتطلب وقتًا وجهدًا يا «جين». أنا سعيد جدًّا. إنك لست فتاة سطحية، وساذجة. ويستحق «تريستاو» كل اهتمامك ووقتك وعنائك. هو أيضًا إنسان حساس، قابل للألم.

– أنا متأكدة أنه إنسان شجاع، يا سيدي. ثم أضافت غير قادرة على أن تمنع حالها من الابتسام:

– ما دام هو ابنك.

– لا شك في أن دم آل «زاتو» يسري في عروقه، لكنني لم أكن يومًا الإنسان الشديد الحساسية، بل أخذت الحياة كما جاءت.

– هل تخاف عليه، لأنه ولد معاق؟

– ذلك يجعلني قلقًا. خاصة بعد أن تبين لي أن «تريستاو» ولد غير قاسي القلب، بعكسي تمامًا. كما أن عليه مواجهة حياة غير واضحة المعالم. أنا ولدت هنا، ولما كنت في سن المراهقة، كنت أعتقد أن كل شيء سيدوم إلى الأبد. لكن، في السنوات الأخيرة الفائتة، طرأت تغييرات كبيرة، وعليّ أن أتغيّب بصورة مستمرة؛ لذلك أردت أن يبقى مع «تريستاو» أحد هنا... امرأة تحبه وتسهر على راحته. كنت أفكر في زوجة للقيام بهذا الدور، لكن كان ذلك خطأً جنونيًّا. حدّقت «جين» إلى الفاكهة الموجودة إلى جانب القهوة. لم تر أو تتذوق مثلها من قبل. التمر الهندي، والعنب الهندي، والموز ذو القشرة الوردية، كلها وضعت

www.rewity.com

على ورقة خضراء من ورق النخيل.

– إذا لم تأكلي من قبل الموز الوردي اللون، أرجوك، أن تتذوقيه. أرى على وجهك بعض العجب.

– في «إنجلترا»، ليس عندنا سوى الموز الآتي من بلاد «الهند الغربية». وأخذت موزة وقشرتها باعتناء. وقضمت قطعة وهي تشعر بأن «الدوق» ينظر إليها نظرة مليئة بالسخرية. كانت الفاكهة لذيذة الطعم، حلوة وقاسية.

– أليس صحيحًا أنك تخافين أن تمدي يدك لأخذ ما ترغبين؟

– بلى.

– إن هذه الفاكهة طيبة المذاق. هنا يوجد أشياء عدّة جيدة للعين والفم، لذا ما عليك إلا أن تستفيدي من وجودك معنا يا «جين».

– هذا ما سأفعله يا سيدي. أنا واثقة بذلك. كانت تتكلم بلهجة جافة، تحاول عدم ملاحظة ما هناك من غموض وراء كلمات «بيدرو». إنه يتكلم كأنها مجرد ضيفة وعليها أن ترحل في الوقت المعين. لم يدعها تطلب من السلطات الحصول على إذن عمل. صحيح أنها الآن استقرّت في منزل «الدوق»، وأغراضها علقت في الخزائن، لكن ليس عليها الاعتقاد أن وجودها هنا دائم.

– الليل سيبدو لك غريبًا، في البداية. أخذ إبريق القهوة وملأ فنجانه من جديد. واستطرد قائلا:

– ستسمعين أصواتًا غريبة: السعادين التي تبحث عن النهر وعويل الأيل عندما يصطاده «الفهد الأسود». والعصافير الوحيدة تطلق أصواتًا

غريبة. وفي قلب الأدغال، يقوم الهنود بعقد اجتماعاتهم التقليدية. إذا عصفت الريح، تسمعين دقات طبولهم. في البداية، تبدو الأدغال كأنها عالم مخيف. لكن عندما تستقرّين، وتتعودين شيئًا فشيئًا حرارة الطقس، سآخذك لرؤية أطلال «المایاس»: الخرائب الباقية من مدن منقرضة. سترين النباتات العجيبة، وإذا ساعدك الحظ ربما تشاهدين «الكوندور»، وهو النسر الكبير الذهبي اللون، إنه من كبار الكواسر ويعيش في هذه البقعة من الأرض. إن اتساع جناحيه مدهش للغاية ويقول «المایاس» إنها جنة تحرسها السعادين لمنع الرجال من الكبرياء.

– إنه عالم يختلف اختلافًا تامًّا عن عالم «إنجلترا»، «لندن»، نهر «التايمس»... الآلة الكاتبة! أطلقت «جين» زفرة وقالت:

– الأفضل أن أستيقظ من هذا الحلم.

– اسمحي لي أن أقوم بذلك عنك. انحنى وقرصها عمدًا في طرف إصبعها.

– أنت واعية، لا تحلمين؛ لأني شعرت بك ترتجفين.

– أصابعك كالحديد. لكن، في الواقع، كانت «جين» تشعر بهذه الملامسة وكأنها شعلة ملتهبة. قال «الدوق»:

– وأنت إنسانة سريعة التأثر. أحاطها بعينيه ثم فجأة وقف وراح يعبر الغرفة. فتح أبواب الخزائن وتفحص محتوياتها الضئيلة.

– إنك لست بالفتاة التي تشعر بضرورة اتباع الموضة بصورة مستمرة، أليس كذلك؟ تعجبت «جين» وهزت رأسها بالنفي.

– كما سبق وقلت لك، أن لي أخت صارت راهبة في «البرتغال». لكن قبل ذلك كانت تحب محلات الموضة في «الريو». خزائنها هنا مليئة

www.rewity.com

بالثياب والبذل والمعاطف. لم أفكر من قبل في أن أتصرف بها، لكنني أعتقد أن هذه الثياب يمكن أن تفيدك. من المؤسف ألاّ يستعملها أحد. هل تريدين أن تأتي معي لرؤيتها؟ عندما نظر «الدوق» إلى «جين» كانت تتردد في حيرة.

– هل سئمت من ارتداء الثياب المستعارة يا «جين»؟

– ليس ذلك يا سيدي... ربما شقيقتك لا تحب أن أرتدي ثيابها. إنها فتاة غريبة لم يسبق أن عرفتها من قبل.

– «ماجدلينا» تريد من كل قلبها أن ترى أحدًا يستعمل أغراضها. كان «الدوق» يتكلّم بلهجة قاسية، واضعًا يديه داخل جيبي سرواله. هذه المرّة لم يأمرها، لكنه كان يريد فقط إقناعها.

– لنفترض... قاطعها «الدوق» قائلا:

– لقد ذهبت منذ سنوات...

– فهمت الآن. لا شك في أنها قامت بخطوة كبيرة في اتخاذها هذا القرار النهائي.

– حصل ذلك بعد وفاة خطيبها. فهي امرأة مخلصة، بعكس النساء في «أمريكا الجنوبية»، فهي تضحي بنفسها في صورة راهبة ممرضة، أي عندها هدف في حياتها، ولا تمضي كل وقتها في الصلاة أو البقاء داخل الدير لا تغادره. لم أكن أحب أن تسجن «ماجدلينا» جمالها وراء الجدران، وأن يذبل حبها للحياة كورقة على شجرة ميتة. عندما سافرت مع «تريستاو» إلى «البرتغال» منذ بضعة أشهر، ذهبت لزيارتها والآن يا «جين» هل اقتنعت بقبول ارتداء ملابسها؟ كانت امرأة تتحلى

بذوق رفيع... كما سترين الآن.

– أوافق يا سيدي. وافقت «جين» ولم تشعر بأنها تحصل على منّة. بل تعوّد «الدوق» رؤية النساء الأنيقات. وشعرت بالانفعال لرغبة «الدوق» في أن يراها ترتدي ثياب شقيقته.

– غرفتها في الطابق الأعلى وسأنتظرك في الشرفة بينما ترتدين أحد فساتينها. هذا المنزل لم تدخله امرأة منذ زمن بعيد، يسكنه رجل عازب نسي بعض اللياقات... راح «الدوق» يفتح أبواب الشرفة ولما خرج كانت الشمس الأرجوانية تغطس في البحر، فلفته بنورها الأحمر كشعلة. ثم راح يجول بنظره صوب المناظر الخلابة أمامه، وهو يدير ظهره إلى «جين» وابتسامة غريبة ترتسم على شفتيه. مع «جين» «الدوق» ينسى أن يلعب دور الرجل الغاوي. إن جسم الفتاة الشابة في ثيابها الرقيقة، لا يؤثر فيه وكأنه ينظر إلى ولد صغير... لم ينتبه «بيدرو» لأنوثتها ولبشرتها البيضاء إلا بعدما حدق إليها الخادم الهندي الشاب. تناولت «جين» تنورة وقميصًا من خزانتها واختبأت وراء الباب الكبير، وراحت تخلع ثيابها وترتدي الملابس الجديدة. سرّحت شعرها المشعث وتوجهت إلى الشرفة حيث كان «الدوق» يتأمل السماء الملتهبة. لم ينطق بأي كلمة، لكنه شعر بوجودها. فقال دون أن ينظر إليها:

– تعالي وانظري إلى غياب الشمس، إنه شيء رائع. تقدمت «جين» إلى الشرفة، والظلّ يمتد واسعًا في ساحة «الصقر الذهبي». وبدأت تسمع صراصير الليل وأخذت مياه بركة السباحة تلمع كالياقوت. تنشقت «جين» نفحة من العطر الساحر. وراحت تتأمل جمال أوراق النخيل

www.rewity.com

المنحنية كستائر خضراء تكاد تلتصق بالأرض. كانت تتأمل السماء بأنفاس متقطعة، مسحورة. وشيئًا فشيئًا امتلأت السماء بشتى الألوان، الأحمر، الذهبي، الليلكي الفاتح... قالت «جين» بصوت منخفض:

– المنظر أجمل بكثير مما كنت أتصوره.

– ويجب أن أعترف لك بأن هذا المنظر يسحرني بصورة دائمة. وراح صوت «الدوق» يمتلئ بنبرة وقورة تضفي على هذا المشهد إثارة حميمة. ولم تشعر «جين» من قبل بهذه الرغبة القوية في أن تكون امرأة جذابة.

– فاتحو «الأندلس» أعطونا، نحن اللاتينيين، أسلوب الأرابيسك، وكذلك هذا الميل إلى الرسم المعقد في نحت الحجر والحديد المصقول. الآن سوف يرخي الغسق معطفه ويستعيد الليل حقوقه. وبعد قليل سيمتلئ الهواء بعطر الأزهار، التي ترى أن الشمس قاسية بعض الشيء، فهي تتنفس بحرية في العتمة. كما سوف تأتي الفراشات الكبيرة بسرعة من أعماق الأدغال، تستهويها أضواء القناديل والمصابيح الكهربائية. توقف برهة عن الكلام وأدار وجهه لينظر إلى «جين» وجهًا لوجه.

– الليالي دائمًا جميلة في هذا الوقت من السنة... جاءت زيارتك في الوقت المناسب. أجابت بتهذيب:

– نعم، يا سيدي. لن يعرف أبدًا أنها جاءت وقلبها الوحيد مستعد للانشراح والبهجة، كما تستعد الأزهار للتفتح.

– إنني أفهم ماذا تقصد... إن الليل رحيم ومتسامح أكثر من النهار، لأنه يخفي العيوب.

– بالعكس يا «جين»، الليل يكشف عن الجوانب المحجوبة في الأماكن والأشخاص. إنه تناقض، فالقناع يسقط في الليل. أتريدين القول إنك مازلت تلك الفتاة الخجولة والباردة التي التقيتها في «فيلا الصخرة»؟ أنا، لا أصدق ذلك.

– لكنني ما زلت كما أنا. راحت «جين» تناقشه، وفي الحال فهمت أنه من الخطإ معارضته. حدق «الدوق» إلى «جين» وجهًا لوجه. كان وجهه يشبه البرجر الساخن والقاسي. ضاقت عيناه وراح يشدها نحوه بعنف:

– ألا تنبضين بالحياة في هذه اللحظة وأنت بين يدي، أكثر من أي وقت مضى؟ أجيبيني. كانت غير قادرة على النطق... فقد انقطع نفسها. واحتلها ضعف مخيف. واستطرد قائلا:

– هل أنت خائفة كثيرًا حتى إنك غير قادرة على الكلام؟

– نـ... نعم. من المستحيل أن تعترف له بأن الحب هو الذي يحبط عزيمتها عندما يلمسها، وليس الخوف.

– إذًا، أنا أرعبك؟ شدّ على خصرها النحيل وقال:

– نعم، يمكنني أن أفصلك عن نفسك، ماذا حدث؟ هل اعتقدت أن السيّد هنا سيتصرف بلامبالاة أم بلياقة؟ لكن نحن في «الصقر الذهبي»، حدودنا الأدغال. إذا كنت غاضبًا أو فرحًا، فإنني أظهر ذلك. أما أنت يا «جين». فأنت تكبتين شعورك.

– لقد تربيت على أن أكون هكذا. استعادت «جين» بعضًا من نشاطها. وفي تلك اللحظة راح قلبها يخفق بسرعة فائقة وكان قميصها الناعم

www.rewity.com

يرتج مما جعل «الدوق» يستدرك ما يجري في داخلها، فقد كانت شديدة القرب منه.

– يبدو لي أن التهذيب يقضي بي ألاّ أتظاهر وأعلن رأيي، كما ليس من الأدب أن أضع زهرة في شعري وأرقص حافية القدمين يا سيدي، إنك تستخدمني لأعتني بابنك وحسب.

– نعم، لأنني كنت أراك شابة لم تنضج بصورة كافية، لتصبح عانسًا تسجل يومياتها في دفتر المذكرات وتملؤه تفاصيل سخيفة.

– كيف عرفت أنني أسجّل يومياتي؟ حاولت «جين» أن تبدو مترفعة لكنها ظلت تتخيله برعب ينظر إلى الزهرة التي وضعتها بين صفحات الدفتر.

– لقد رأيته على الطاولة قرب الأريكة. أراهن على أنك بدأت بتسجيل وصولك إلى هنا، اليوم.

– نعم، فليس كل يوم تدخل فتاة مثلي مثل هذا المنزل الأصيل.

– فتاة مثلك؟ هل تعتبرين حالك امرأة فريدة؟ لهجته الساخرة والوقحة جعلت «جين» تحمر خجلا. كانت الشمس تضفي عليهما أشعتها الأخيرة قبل الغروب. أجابت «جين»:

– أنا لست بالضبط صورة الإغراء، لست فتاة ترفع من مقامك مثل... لست تلك الفتاة التي يمكنها أن تحل مكان... أجابها بسخرية:

– لم آت بك إلى هنا لتقومي مقام الزوجة، أكنت تعتقدين ذلك؟

– أرجوك... لا تكن قاسيًا. كانت ترتجف من الألم، وهي تحاول الابتعاد عنه. لكنه كان يشدها بعنف وأصابعه تغرز في جلدها كأنها

من الحديد.

– أنت... أنت تلعب بالكلمات وتغيّر معنى كلماتي؛ لأنني عارضتك حيال نقطة تافهة. أنت تمثّل دور الظالم المستبد.

– أنا أمثّل يا «جين»؟! رمقها بعينيه الذهبيتين اللتين تشبهان الفهود السود عندما تفترس طريدتها.

– أنا نفسي، «بيدرو دي زاتو»، إنني أتصرف معك لأنك فتاة من لحم ودم، لا ممسحة أطأ عليها. إنني أناقشك لأني أعتقد أنك فتاة ذكية. وللأسف إذا كنت تعتبرين ذلك من عمل رجل ظالم مستبد. فأنت تريدين معلمًا لا... صديقًا. كانت كلماته تجعل «جين» مضطربة بشكل عميق... إذ تعودت أن تعامل بشدة وعنف، مما جعلها تعتقد أنه يتصرف معها بطريقة «مادج» و «لارين». لم يخطر ببالها أنه يريدها صديقة لا خادمة. كانت تنظر إليه بحنان وانفعال عندما ابتعد عنها فجأة.

– هكذا يا «جين»، ستكونين أيضًا رفيقتي. يصبح المنزل وحيدًا بعد غياب الشمس. كل مساء ستتناولين معي طعام العشاء، وتتكلمين معي، أريد أن أتعرّف إليك... في خلال الوقت القصير الموجود أمامنا. ارتعش قلبها، وخافت أن تفقد قواها.

– عملي لديك لن يكون مستقرًا وبشكل دائم؟

– لا شيء يبقى بشكل دائم في هذه الأيام. تعالي، هيّا بنا نجلب بعض ملابس السهرة و... يا «جين»، لا تخافي من أن تحدثيني بحرية، فلن أؤذيك. حاولت «جين» الابتسام. لقد أصابتها صدمة عندما علمت أن

www.rewity.com

وجودها هنا في «الصقر الذهبي» ليس سوى فاصل زمني في حياتها.

- 8 -

صعد «الدوق» إلى الطابق الأعلى، فتبعته «جين». وما إن وصلا إلى الممر المؤدي إلى جناح شقيقة «الدوق»، حتى اشتعلت الأنوار الكهربائية، فأخبرها «الدوق» بأن منزله مزود بمولد كهربائي خاص، لكن عندما تسوء الأحوال الجوية يتعطل المولد فيستعملون القناديل التي تضاء بالزيت.

كانت أبواب الغرفة المطلة على الممر مصنوعة من خشب الأرز المنحوت. وارتعشت «جين» كأنها ترى شبح «ماجدلينا». يبدو أن «الدوق» ما يزال يحن إلى شقيقته في هذا المنزل الضخم، فباستثناء «تريستاو» ليس له أهل مقربون. ألم يقل إن المنزل يصبح وحيدًا عندما تغيب الشمس، و«جين» كانت تشعر بهذه العزلة. كبس «الدوق» على الزر الكهربائي. فاشتغل الضوء. وراحت «جين» تتأمل بإعجاب تلك الغرفة ذات الجمال النادر.

هنا، الأثاث بلون الذهب، ومرصع بخشب الورد. كل شيء أنيق وظريف. الستائر الحريرية الزرقاء والفضية تنسدل في طيّات ثقيلة. والسجاد الذي يكسو الأرض من لون الستائر. وعلى التسريحة قوارير من الفضة والبلور، تنعكس أضواؤها على المرايا الثلاث في الغرفة. هذه الغرفة المهجورة، التي لم يسكنها أحد منذ ذهاب «ماجدلينا». مازالت

برونقها ونظافتها، كأنما «الدوق» مازال يأمل أن تعود «ماجدلينا» يومًا.

فتح باب الخزانة الكبرى، فظهرت منها الثياب الجميلة. وشعرت «جين» بالعطر يتصاعد، فلا شك في أن شقيقة «الدوق» كانت تحب الثياب الجميلة والمجوهرات الثمينة.

نظر «الدوق» إلى هذه الثياب كأنه يتخيل «ماجدلينا»، وهي ترتدي هذا الثوب أو ذاك. ثم أدار وجهه العابس وبإيماءة من رأسه أشار إلى «جين» بالدخول إلى قاعة الاستقبال المجاورة المتصلة بالغرفة. وهنا أيضًا كان الأثاث أنيقًا وفريدًا: أوراق بيضاء تزين السجادة الحمراء، ووسائد حمراء عدّة موضوعة على الكنبة المخملية الرمادية اللون.

– هذه صورة «ماجدلينا». جذب «الدوق» انتباه «جين» إلى جدار ملبّس بالخشب، وانتابتها صدمة خفيفة عندما نظرت إلى عيني الفتاة الشابة. كانت صورتها مرسومة على لوحة إطارها من العاج، أعجبت «جين» بخطوط عينيها الجميلتين ورموشها السوداء الناعمة. وكان وجهها مليئًا بالحيوية، دون أن يكون جميلا بالضبط، وكانت ترتدي فستانًا أحمر يظهر نحافة جسمها ورشاقته، وزهرة بيضاء برية تزين خصرها.

تنهدت «جين» قائلة:

– إنها جميلة جدًا. تذكرني بـ «تريستاو»... قال «الدوق» بكل هدوء:

– بالطبع، لم لا؟ فهي شقيقتي.

– إني أفهم مدى حزنك؛ لأنها هجرت هذا البيت.

– إنها تابعة لدير «عذارى الوحدة». وأنا أعرفها جيدًا، لذلك لا يمكنني القول بأنها حقًا سعيدة. لكن هذا لا يمنعني من التفكير في

أن سعادة المرأة تتعلق بالحب الذي يربطها بالرجل. لكن شقيقتي مصرّة على أنها لن تجد الحب مرّة أخرى... لقد مرضت وبقيت طريحة الفراش لأشهر عديدة. وبعدما شفيت، غادرت «البرازيل» هربًا، وعلمت بعدها أنها لجأت إلى دير «عذارى الوحدة» في «البرتغال»، لحقت بها، وحاولت إقناعها بأن تعود معي إلى «البرازيل». لكنها رفضت... كانت على وشك الانهيار ونصحتني رئيسة الدير بأن أنتظر. هزّ كتفيه العريضتين وأضاف:

– ربما تستغربين إذا قلت لك إنه لو سمحت لي رئيسة الدير بأن أصطحب «ماجدلينا» معي، في تلك الليلة، لرفضت العودة إلى الدير بشكل نهائي. لقد قلت لها: «ابقي هنا في «البرتغال»، إنك لست مجبرة على العودة إلى «البرازيل». كانت تبكي كأن قلبها تحطم وعالمها أصابه الدمار. كانت دائمًا شديدة المرح. لم أعتقد يومًا أنها ستصاب بصدمة كبيرة على إثر وفاة خطيبها في «البيرو». وما كنت أظن أنها قادرة على أن تحب إنسانًا إلى هذه الدرجة. كانت تسحرها أشياء أخرى عديدة: الحياة، التبرّج، ركوب الخيل، المسرح، السهرات... وتوقف «الدوق» فجأة عن الكلام، وغادر غرفة الاستقبال ليدخل غرفة نوم شقيقته. تناول من إحدى الخزائن بعض الملابس، بحركة غاضبة وقال:

– تعالي، هذه الثياب لك، أنت بيضاء والألوان التي كانت تحبها تليق بك. وكذلك ألوان الحجارة الثمينة: الياقوت الأحمر والزمرد... أنا متأكد أنه لم يسبق لك أن أبرزت جمالك: هاتان العينان الخضراوان

وهذه البشرة البيضاء. أما الآن فما عليك إلا أن تحاولي يا «جين». سوف تقبلين وتقولين إني إنسان قاس وظالم، أليس كذلك؟ لحقت «جين» بـ«الدوق» الذي غادر الغرفة بعد أن أطفأ النور وأغلق الباب، تاركًا صورة «ماجدلينا» في العتمة. دخل غرفة «جين» وألقى بالملابس على السرير.

– من الآن فصاعدًا، هذه الملابس ملكك. «ماجدلينا» هي الآن الراهبة «ماريا». تلألأت عيناه وحدق إلى «جين» بنظرة شرسة وقال:

– أتدخلين الدير إذا انقلب العالم ضدك يا «جين»؟

– أنا... لا أعرف، سيدي. كانت «جين» تبدو رصينة، متحفظة... وبدا الاضطراب في يديها المشدودتين وراء ظهرها.

– لم أكن مرّة أشبه النساء اللواتي يعشن مغامرة عاطفية ذات نهاية درامية. شقيقتك امرأة جذابة، أما أنا، فلا أجذب الرجال، يا سيدي. راحت عينا «الدوق» تنظران إليها بدقة، ثم توجه نحو السرير واختار ثوبًا طويلا من المخمل الأخضر.

– ما عليك إلا أن ترتدي هذا الثوب فتغيري رأيك بنفسك، المرأة تبدو جميلة وأنيقة إذا ارتدت فستانًا جميلا. بعدما غادر «الدوق» المكان، بقيت «جين» جامدة لا تتحرك. كانت لا تزال تحت تأثير دوامة الانفعالات التي أرهقتها. ما جدوى البقاء هنا، فاغرة الفم أمام الفساتين المكدسة على السرير. من الأفضل البدء بتعليقها لتظل أنيقة. وما إن لمست يد «جين» الفساتين، حتى فكرت في أنها لن تتجرأ وترتديها. ستبدو مثل غراب يتزيّن بريش الطاووس.

تناولت فستانًا من اللون الأخضر الغامق، وهو الثوب الذي اختاره «الدوق»، فهو من المخمل الناعم، طويل، من طراز القرون الوسطى: الأكمام الواسعة والطويلة والقبة العالية التي تنتهي بقبعة... لون الفستان يليق بها وينسجم مع لون عينيها، لكن «جين» لن تتجرأ على ارتدائه. هزت رأسها وأغلقت باب الخزانة تاركة الفساتين البراقة في وحدتها. عليها أن تنسى وجود تلك الفساتين الفضفاضة وتهتم بـ «تريستاو» الذي لابدّ من أن يكون قد استيقظ ويريد تناول العشاء. عندما دخلت «جين» إلى غرفة الصبي، كان جالسًا وسط السرير، يلعب بطائرة صغيرة، يغرزها في بطانيته ثم يرفعها عاليًا لتطير محدثة ضجيجًا. ولما رأى «جين» ابتسم لها وقال:

– هل تعجبك طائرتي يا آنسة؟ اشتراها لي أبي عندما كنا في «البرتغال»، نزور عمتي. أليست رائعة؟ انظري إلى الرشاش في برج المرمى.

– إنها رائعة حقًا. ابتسمت «جين» وجلست على طرف السرير وراحت تراقبه. خصلات شعره الأسود القصير المشعث وعيناه الذهبيتان تلمعان بهدوء. إنه يشبه شقيقة «الدوق» شبهًا كبيرًا. فليس غريبًا أن يحتفظ به والده، دون الالتفات إلى الشائعات. سألت «جين» الصبي:

– ما رأيك لو ارتديت ثيابك وهيأت نفسك للعشاء؟ لابدّ من أنك جائع يا «تريستاو». أتحب أن تأكل شيئًا معينًا؟ راح الولد يفكر وهو يداعب طائرته ويحدق إلى «جين». ثم سألها:

– هل تتناولين طعام العشاء معي؟ جرت العادة أن آكل وحدي، لأن أبي يتناول عشاءه متأخرًا، وغالبًا ما يجلس إلى مكتبه ويعمل. هل

تحبين أبي يا آنسة؟ فوجئت الفتاة بهذا السؤال، لكنها تمالكت نفسها بسرعة. يجب أن تعتاد أسئلة هذا الصبي الوحيد، الذكي والكثير الفضول. أجابته قائلة:

– والدك رجل لطيف ومهذب يا «تريستاو»، وأنا أحترمه جدًا. وأعرف تمامًا أنه يكن لك حبًا كبيرًا.

– أليس عندك والد يحبك؟ أجابته «جين» وهي ترفع خصلة من شعره عن جبينه الأسمر الناعم:

– مات والدي منذ زمن بعيد.

– ووالدتك... هل ماتت مثل والدتي؟ لم تكن تتوقع سؤالا كهذا، فهي تعرف أن والدة «تريستاو» ما زالت حيّة ترزق. لاشك في أن «بيدرو» جعل ابنه يعتقد أن والدته ماتت. وعلى الرغم من كل ما حدث فإنه من الظلم أن يتمّ التفريق بين أم وولدها. هل كان «الدوق» يخشى أن تقوم والدة «تريستاو» باختلاس حبه للصبي؛ لأنه لم يعد يحبها؟ هل هو ظالم إلى حدّ رفض فكرة أن يتقاسم من يحب مع إنسان آخر؟ أم هل أن فقدانه لـ «ماجدلينا» جعله يخاف من أي تدخل يحصل بينه وبين «تريستاو»؟ حبست «جين» تنهداتها. فهي لن تفهم أبدًا هذا الرجل الغامض والذي وقع عليه قلبها.

– ماذا تريد أن تختار للعشاء؟ راحت «جين» تلملم جوارب «تريستاو» وتساعده على ارتدائها. فقد لاحظت بحزن تشوّه رجله المصابة. أجاب «تريستاو»:

– أعتقد أنني أفضل بعض الفطائر بالزبد والمربى.

www.rewity.com

– هذا يبدو طعامًا شهيًّا. هل يجب أن أرنّ الجرس لطلبه؟ لم أتمرّس بعد على سير الأمور في هذا المنزل ولا أريد إزعاج الخدم. أجابها بنبرة متكبرة:

– أبلغهم أبي أنك رفيقتي. سأقرع الجرس وسيأتي «جوستوس» وأطلب منه أن يحضر لنا بعض الفطائر. ربّما تعتادين ذلك، يا آنسة.

– شكرًا جزيلا يا «تريستاو»، أنت لطيف جدًّا، إن لغتي البرتغالية سيئة للغاية، وأحتاج إلى بعض الوقت لأصبح قادرة على التحدث مع الخدم. هل بين الخدم من يتكلم الإنجليزية، طبعًا ما عدا كبير الخدم المتعجرف؟

– كلا، الجميع هنا يتكلمون لغتهم المحلية، ما عدا البدائيين الذين يفهمون بالإشارات. وذلك لأنهم أتوا من الأدغال حيث يتكلمون بأيديهم؛ حتى لا يحدثوا ضجة تفسد عملية الصيد، يقول أبي إن الهنود «المایاس» يتمتعون بنظر وسمع قويين، كالأسد. فهو يعرف ذلك تمامًا لأنه غالبًا ما يذهب إلى الصيد معهم. عندما أصبح أكبر سنًّا سيأخذني معه، لكن لا يمكننا أن نأخذك معنا يا آنسة. فلا يحب الهنود وجود النساء في رحلات الصيد.

– ما قلته لم يزعجني قط. ولفت نظر «جين» جلد نمر كبير الحجم، أشقر اللون، موضوع على الأرض قرب سرير «تريستاو».

– قتل أبي هذا النمر الذي يفترس الأولاد الصغار في الأدغال. يمكنك رؤية مكان الرصاصة، في الدماغ. لم يتألم الحيوان وجلده لم يتلف. لوالدي تجارب كثيرة. قالت «جين» بنبرة جافة:

– بكل تأكيد. والآن يجب أن تقرع الجرس ليجلبوا لنا العشاء. اغسل يديك ووجهك جيدًا، بينما أطالع هذه الكتب. هل سبق أن كان لديك رفيقة أو مربية يا «تريستاو»؟ التفت نحوها وهزّ رأسه قائلا:

– أبي يهيئ الدروس ويسمعني أقرأ. أذهب إلى مكتبه ساعتين كل يوم. هذا إذا لم يضطر إلى التغيّب عن المنزل لعدة أيام. قطّب «تريستاو» حاجبيه وعض على شفته.

– أحيانًا يذهب في المساء، ولا أعرف أين يذهب. لم يكن يفعل ذلك من قبل يا آنستي. وبسبب هذا العمل الإضافي الذي يقوم به، اضطر إلى أن يطلب منك أن تكوني رفيقتي. أجابت «جين» وهي تبتسم:

– نعم، بكل تأكيد. لا يحب والدك أن يتركك وحدك، لكني أعتقد أنه مجبر على ذلك. وراحت «جين» تسأل نفسها: «هل يخرج ليلا من أجل القيام ببعض الأعمال أم أن هناك سببًا آخر؟ هل هو على علاقة مع امرأة، يفضّل ألا يخبر «تريستاو» عنها؟ هذا يفسر احتياجه المفاجئ إلى إنسان يثق به من أجل البقاء مع «تريستاو» ليلا ونهارًا، عندما يكون غائبًا عن المنزل». شعرت «جين» بألم غريب في قلبها، إن رجلا مثل «الدوق» لا يمكنه أن يعيش حياة ناسك... كان «تريستاو» يبدو صغيرًا ونحيلا في بيجامته الحريرية... نصحته أن يأكل الفطائر كوجبة ثانية على أن يبدأ بأكلة شهية مثل لحم الغنم المطبوخ بالبصل والبندورة (الطماطم) الذي يقدم مع البطاطا الصغيرة المقلية مع الجبن. قالت «جين» مبتسمة:

– لابدّ من أنك جائع مثلي يا صديقي.

www.rewity.com

– هل ستتناولين طعام العشاء معي يا آنسة؟ وهنا سمعت طرقًا على باب الغرفة. كان «جوستوس» يجيب على قرع الجرس. أشارت «جين» برأسها إلى «تريستاو» الذي راح يطلب العشاء بسرعة، بلغة لا يمكن لـ«جين» أن تفهم منها شيئًا.

كان الخادم الهندي الشاب يحدق إلى «جين» في كثير من الفضول. وكانت هي تنظر إليه بهدوء. كانت تفهم أن هؤلاء الهنود «المایاس» يشعرون بالحرج تجاهها، ولكي تحظى بصداقتهم، عليها أن تحافظ على هدوء أعصابها. همس «جوستوس» بكلمة إلى «تريستاو»، ثم خرج من الغرفة. ألقت «جين» نظرة استفسار إلى الصبي الذي رد عليها بغمزة ساخرة وهو يقول:

– قال «جوستوس»: «إن عينيك تشبهان حجارة التنّين»، يعني أنها تشبه الزمرّد، يا آنستي.

– حسنًا، لا أعرف إذا كان ذلك ذمًا أم مدحًا. على كلّ حال، آمل ألا أشبه التنّين... هل أنت حقًا سعيد بوجودي معك هنا؟ أجابها «تريستاو» وهو يمسك بيدها ويضعها على خده. لا حاجة له أن يعبّر بالكلمات. وفهمت «جين» في الحال أنه يرحّب بها وأنه يحتاج بشدة إلى حنانها. سألها «تريستاو» وهو مازال متعلقًا بيدها:

– وأنت يا آنسة؟ هل أنت سعيدة بوجودك هنا؟ إنك باقية معنا، أليس كذلك؟ لن تذهبي... أو على الأقل ليس قريبًا؟ وعدته «جين» بأنها لن تغادر قريبًا. لكن عليه أن يفهم أن إقامتها هنا ليست بصورة نهائية.

– غدًا نعرف كل شيء في «الصقر الذهبي». أما الآن، فيجب أن نتناول

العشاء. وبعد ذلك ستختار كتابًا نقرؤه معًا. أراهن على أنك تحب الكتب التي أحبها، أي كتب المغامرات والأسفار. هزّ «تريستاو» رأسه، ثم دخلا معًا الحمام وهو لا يزال ممسكًا بيدها. في غرفة الحمام مغطس كبير واسع. وعلى أحد الرفوف بعض البواخر التي يلهو بها في الماء عندما يأخذ حمامًا. فتحت «جين» حنفية الماء الساخن لتملأ المغطس وقالت:

– أعتقد أنه يجب أن أبقى معك عندما تأخذ حمامًا، أليس كذلك؟ احتجّ «تريستاو» قائلا:

– لست طفلا، تعلمت السباحة منذ زمن بعيد. قال الأطباء لأبي إن السباحة تفيدني. عادة يكون أبي هنا عندما أستحم. يراقبني ويتأكد أني أجفف جسمي جيدًا. وعندما يكون والدي مشغولا يكون معي «جوستوس». وضعت «جين» بعض الصابون على ليفة ناعمة وراحت تغسل وجه «تريستاو» ويديه. ثم أعطته منشفة وسألته:

– قل لي يا «تريستاو»، ألم يكن هناك امرأة تهتم بك قبل مجيئي؟

– نعم، عندما كنت صغيرًا... وبسببها، أنا... عضّ الصبيّ على شفته، وألقى نظرة إلى رجله المعطوبة وأكمل قائلا:

– كلمني عنها خادم السيدة «فيليسيا»... قال لي إنها أخذتني معها بالسيارة وأدخلت السيارة في الجدار. أذكر أنني كنت محصورًا في أحد المقاعد وشعرت ببعض الألم. وعمتي الراهبة جاءت من «البرتغال» لتبقى معي في المستشفى... كانت الدموع تتساقط من عيني أبي باستمرار ولم تشفَ رجلي بشكل نهائي. لكنني لم أعد أشعر بأي ألم فيها، وهذا

شيء جيد.

– نعم، يا حبيبي. كانت «جين» تمشط شعره بهدوء.

– هل تعرف ماذا حلّ بمربيتك؟

– قال لي «سانشو» الخادم إنها قتلت. وقالت لي «فيليسيا» إنها لو لم تمت لكان والدي وضع حدًّا لحياتها. عندما يغضب والدي يصبح إنسانًا ظالمًا وعنيفًا. يقول «جوستوس»: «إن عيني والدي تشبهان عيون القطط الوحشية، التي يجب الاحتراس منها». لم تستطع «جين» أن تمتنع عن الابتسام، على الرغم من تفكيرها في المأساة التي حصلت. أترى ماذا كان سيحدث لو مات الصبي وعاشت المربية؟ عادت «جين» مع الولد إلى غرفته. جلسا معًا أمام الطاولة وراحا يأكلان بشهية ويتمتعان بالطعام اللذيذ الذي أحضره «جوستوس» على صينية فضية. وكان «تريستاو» يطرح الكثير من الأسئلة، لمعرفة المزيد عن «إنجلترا» وخاصة عن العاصمة «لندن».

اكتشفت «جين» كم هو لذيذ العيش برفقة ولد. ومضى الوقت وهما يتبادلان الحديث. ثم حان وقت النوم لـ «تريستاو»، فوضعته «جين» في سريره وراحت تبحث في مكتبته عن كتاب باللغة الإنجليزية لتقرأ له بعض الفصول. وجدت كتابًا عن الأسفار يدعى «أسفار غوليفر». وفي الصفحة الأولى إهداء: «إلى ابني «بيدرو»، مع حبي، ماما». كتاب انتقل من الوالد إلى ابنه... كانت «جين» سعيدة بأن تقرأه. هذا ما حصل عندما كان «بيدرو» صبيًّا. إذ سمع «تريستاو»، صوت امرأة تقرأ له كتابًا قبل أن ينام.

بعد أن انتهت من قراءته، أغلقت «جين» الكتاب وراحت تراقب وجه الصبي النائم على وسادة بيضاء مطرزة بشعار العائلة: «الصقر الذهبي» الذي يحمل في مخالبه سيفًا وزنبقة. كانت رموش «تريستاو» تشبه خيوطًا حريرية سوداء فوق بشرته السمراء الناعمة. نهضت «جين» وأعادت الكتاب إلى مكانه. في المكتبة عدد كبير من الكتب القديمة والحديثة: كنوز وأساطير، اكتشافات «البيرو»... إلى ما هناك من قصص تاريخية للأطفال.

فتحت «جين» كتاب اكتشافات «البيرو» فسقطت منه ورقة. كانت قطعة من رسالة. أعادتها إلى الكتاب على الرغم من شوقها إلى معرفة كل شيء عن آل «زاتو»، لكنها وعدت بأن تبقى كتومة. «البيرو»، المعروفة بآثار قبائل هنود «الإينكاس» وبالأساطير الغريبة... في تلك البلاد قتل خطيب «ماجدلينا». وشعرت «جين» بأن الشؤم يلاحق العائلة، كأن أحدًا في الماضي قد صبّ اللعنة على الدوق «بيدرو» وعائلته. أحست «جين» برعشة في داخلها، وضعت الكتاب مكانه وعادت تقف أمام سرير «تريستاو». كان ينام بهدوء انحنت فوقه وبكل حذر لمست بشفتيها شعر رأسه. فتحرك الولد وهمس وهو مغمض العينين:

– أبي...

خرجت «جين» من غرفة «تريستاو» لتتوجه إلى غرفتها. وراحت تتساءل، لماذا لم يأت «الدوق» ليرى ابنه ويقبّله ويقول له تصبح على خير؟ عندما كانت مع «تريستاو»، سمعت صوت حوافر حصان في باحة المنزل. فخيّل إليها أن زائرًا ما حضر إلى المنزل، أو أن «الدوق»

www.rewity.com

خرج. كانت «جين» تشعر بقليل من التوتر، فقررت عدم الذهاب توًّا إلى غرفتها وراحت تتنزه في الممر الذي علقت على جدرانه لوحات تمثل أفراد العائلة، لا يلاحظ أحد وجودها. فهي ما زالت غير واثقة بنفسها لتغامر بالنزول إلى الطابق الأرضي، إلى مدخل المنزل؛ لأن «الدوق» قد يكون هناك مع الزائر، وهي تريد أن تتحاشاه. راحت «جين» تذرع أرض الممر وهي تنظر إلى وجوه أسلاف «الدوق»، المتعالية والفخورة.

توقفت في الظل، قرب فتحة نافذة تنسدل منها الستائر الفخمة. جلست على الطرف العريض. كان الليل يطوق المنزل جالبًا معه أصواتًا قويه: حفيف أوراق الشجر، خطوات الخادم الصامتة، زئير الأسد، ضربات أجنحة الخفافيش. كل هذه الأصوات تزيد من توتر أعصابها وحساسيتها. لم تكن تشعر بذلك عندما كانت تعيش مع عمتها، ولم تشعر بالحياة تنبض في داخلها إلا بعد وصولها إلى «الصقر الذهبي»، مثل نبتة تستقبل دفء الشمس للمرّة الأولى.

كانت تائهة في أفكارها لدرجة أنها اهتزت بشدة لدى رؤية ظل كبير يرتسم قربها. فالتفتت وهي تعتقد بأنها سترى أحد الخدم. لكنها رأت سيّد المنزل، يرتدي سترة عنّابية وسروالا أسود، كان يدخن السيجار. وراحت «جين» تتأمل شعره الأسود المجعّد، ووجنتيه وعينيه البراقتين تحت رموشه السوداء. قال «الدوق»:

– أنت إذًا هنا. أرجو أن تكوني قد تناولت طعام العشاء يا «جين».

– نعم، شكرًا يا سيدي، تعشيت مع «تريستاو».

– جاءني زائر غير منتظر، وإلا كنت تناولت طعام العشاء معك، في

الطابق الأرضي. كان حديثنا عن الأعمال، وخشيت أن يصيبك الملل لو كنت معنا. هل كان تصرف «تريستاو» في خلال العشاء مشرّفًا؟

– نعم، وأنا سعيدة أن أبلغك ذلك. ابتسمت «جين»، وهي مازالت مضطربة من سحر «الدوق» وأناقته. وتمنت لو أنه لا يلاحظ اضطرابها.

– بعد أن أنهى «تريستاو» وجبته الأولى، عاد وأكل أربع فطائر بالزبد والمربى.

– آه، نعم، إنه يحب أكل الفطائر. لكنه أحيانًا يشعر بشهية مفاجئة. كنت دائمًا آمل أن تشفى قدمه بصورة نهائية. لكن، للأسف فإن وتر كاحله مشلول. أخذته عند أطباء مختلفين، غير أنني اقتنعت في النهاية بأن الأمر ميئوس منه. «تريستاو» ولد ناعم ولطيف، أليس كذلك؟ إنه يتأفف من أيّ شيء.

– إنه ولد رائع. لقد صرنا صديقين. قال لي... توقفت «جين» عن الكلام، مترددة ثم قالت:

– أنا لم أسأله شيئًا، لكنه هو الذي أخبرني كيف حصل له الحادث.

– إنني واثق بأنه يجب أن تعرفي السبب. كان عمره ثلاث سنوات، وعهدت به إلى مربية لترعاه وتسهر على راحته. كنا نعيش في ذلك الوقت في «الريّو»، وكنت أسمح للممرضة المربية أن تأخذ «تريستاو» معها كلما خرجت للتسوّق أو للسباحة. كنت في مكتبي عندما علمت بالحادث. لقد تحطمت السيارة على حائط قرب الشاطئ. ماتت الممرضة. وفي البدء

www.rewity.com

كنا نعتقد أن الولد لن يعيش، وفي المستشفى قدمت إليه بعضًا من دمي. ومع مرور الوقت بدأت صحته تتحسن، وصار قادرًا على تحمل إجراء جراحة في رجله المحطمة. يا إلهي! كم كنت أتعذب وأنا جالس أنتظر وأتساءل عما إذا كان الولد الذي أحببته سيموت وهو في الثالثة من عمره. أخذ «الدوق» نفسًا من سيجاره ثم أضاف:

– بعد الحادث، صرت أحافظ على «تريستاو» بقربي في أكثر الأحيان. منذ وقت قليل بدأت أفكر... آه! يكفي أن أقول لك يا «جين»، إني سعيد جدًا لأنك قبلت أن تكوني هنا، معنا. وكذلك فإنني مسرور لأنكما، أنت و «تريستاو»، أصبحتما صديقين. كنت أعرف ذلك، في داخلك شيء ما يجذب الأولاد... الحنان، والعينان الخضراوان. إني آسف لأنني لم أكتشفك من قبل. انتفض قلب الفتاة لدى سماعها هذه الكلمات، وعلى الرغم من أنها فهمت ماذا يقصد. إنها لو اهتمت بـ«تريستاو» عندما كان عمره ثلاث سنوات، لما حصل له هذا الحادث.

– لماذا جئت إلى هنا؟ نظر «الدوق» إلى الظلال التي تعكس خيالها على اللوحات والجدران وأضاف:

– ألا تحبين غرفتك؟

– آه نعم، إنها غرفة جميلة جدًا يا سيدي، لكنني كنت أشاهد هذه الصور لأسلاف آل «زاتو». قال «الدوق» وابتسامة ساخرة على فمه:

– احذري مجرى الهواء، إن الليالي باردة. تعالي معي إلى غرفة الاستقبال، لنحتسي فنجان قهوة قبل أن تذهبي إلى النوم. مدّ لها يده

يساعدها على النهوض. وشعرت بأصابعه النحيلة تشد على أصابعها فارتجفت وسرعان ما حاولت جاهدة أن تخفي حقيقة انفعالاتها. قال لها «الدوق»:

– يدك بادرة، يجب أن تتناولي فنجان شاي ساخن.

– أفضّل... أفضّل أن أنام يا سيدي. كانت «جين» تحتاج إلى مزيد من الشجاعة لترفض طلب «الدوق» وأضافت تقول:

– كان النهار طويلا. وعلى أية حال لم أشعر يومًا بالحرارة في يديّ.

– يدان باردتان قلب حار، يا «جين»؟ حدق «الدوق» إليها. وعندما لاحظ علامات الإرهاق حول عينيها، اضطر إلى الخضوع لرغبتها ورافقها حتى باب غرفتها.

– تصبحين على خير يا آنستي.

– شكرًا يا سيدي، تصبح على خير. فتح «الدوق» الباب ودخلت «جين» غرفتها. انحنى لها قليلا قبل أن يذهب. كل ما بقي من أثر «الدوق» بعدما أغلقت «جين» الباب، رائحة سيجاره، التي تسللت معها إلى الغرفة وبقيت فيها تعذبها.

- 9 -

مضى على وجود «جين» في «الصقر الذهبي» سبعة عشر يومًا، وهي ما تزال تشعر بالسعادة لإقامتها في منزل يقع قرب الأدغال التي لا تراها إلا من بعيد، وذلك عندما تمضي مع «تريستاو» بعض الوقت في

www.rewity.com

الشرفات العالية. كانت تهتمّ بـ «تريستاو» من التاسعة صباحًا حتى الظهر. ثم يتناولان طعام الغداء، ولمدة ساعة تقريبًا، كان «تريستاو» يمضي فترة من الوقت مع والده «الدوق» الذي يعلمه تاريخ «البرتغال» وبعض الحساب. ثم تستأنف «جين» الاهتمام به.

هذه الحياة المنظمة كانت لطيفة. لكن الآن، بعدما تعرفت المنزل والحدائق التي تحيط به، بدأت «جين» ترغب في أن تعرف ما يجاور المنزل. خيّل إليها أن «الدوق» يفضل أن يراها و «تريستاو»، في أمان داخل البيت، فهو لا يزال يحترس: فماذا لو كانت هي أيضًا طائشة، كالمربية الأولى؟ فكرت «جين» في أنه من الأفضل احترام أمنيات «الدوق» في الوقت الحاضر على الأقل.

لكن المكان يبدو في غاية الجمال والجاذبية؛ لذا قررت «جين» في صباح أحد الأيام أن تستجمع شجاعتها، وتسأل «الدوق» إن كان يسمح لها باستكشاف الجوار، وأن تذهب للتنزّه عندما يأخذ «تريستاو» قيلولته. وستعده بعدم الذهاب بعيدًا، وسط الأشجار الرائعة التي تعانق النباتات المتسلقة من الشرفة. كانت البلدة تبدو لها جنة خضراء. وكانت تتمنى لو أن «الدوق» يتذكر ما وعدها به عندما قال إنه سيأخذها إلى الأدغال بنفسه.

وبدلا من أن يذهبا إلى شاطئ البحر، كانت «جين» و «تريستاو» يسبحان في الحوض التابع للمنزل. فإذا سمح لهما «الدوق» بالذهاب إلى الشاطئ، عليهما سلوك درب ضيق متعرج درجاته صلبة ووعرة. ولن تتمكن هي و«تريستاو» من عبور هذا الممر وسيضطر أحد هنود «المایاس» إلى أن

يحمل «تريستاو»، و «جين» تعرف جيدًا أن الصبي يكره أن يلفت الانتباه إلى عاهته. كان البحر يبدو باردًا، لكن ذلك لا يخيف «الدوق»، لقد رأته مرّات عدة عائدًا من سباحة صباحية، المنشفة على كتفيه، وشعره الأسود يلمع كجناح غراب.

كانت «جين» تحتاج إلى شجاعة فائقة لارتداء الثياب التي فرض عليها «الدوق» أن تلبسها. اختارت الثياب البسيطة. وبدأت تحب أن تكون أنيقة الملبس وخاصة عندما تكون مع «الدوق». كان الطاهي ناجحًا في إعداد الطعام الذي كان يختلف من يوم إلى آخر. المآكل البرتغالية والفرنسية وأحيانًا الإنجليزية حتى لا تشعر «جين» بغربة تامة، أو ربما لأن «الدوق» يحب روستو البقر والخضرة منذ أن كان يدرس في «إنجلترا». كانت «جين» تشعر، قبل أن تأتي إلى «الصقر الذهبي»، بأن «الدوق» رجل رقيق ومهذب. لكن تبيّن لها الآن أنه يتمتع إلى جانب ذلك بثقافة واسعة. لديه معلومات عن كل ما يتعلق بالفن والموسيقى والأدب. وكان يبدو سعيدًا وهو يفتح أمام «جين» آفاقًا جديدة. مكتبته الغنية تحت تصرف الفتاة. وكانت عندما تشكره، يرد عليها بحدّة، إنها كلما تعلمت أكثر استفاد «تريستاو» منها أكثر.

أحيانًا، بعد العشاء الذي يعتبر الوجبة الأساسية الطويلة في «أمريكا اللاتينية». كان «الدوق» يأخذ «جين» إلى مكتبه لتناول القهوة. على جدران المكتب لوحات ومحفورات قديمة وحديثة. لا وجود لقطعة تافهة القيمة. وكان «الدوق» يطلع «جين» على أسرار الرسم الفني الرائع. بدأت «جين» تجد أن هذه السهرات هي أثمن من الذهب أو

www.rewity.com

الحجارة الكريمة. لم تكن فقط تتعرف إلى إنتاج الفنانين أو الكتاب، إنما كانت تكتشف وجهًا آخر من شخصية «الدوق»، وهذا كان يعجبها، إضافة إلى وجود «الدوق» إلى جانبها.

بعد هذه السهرات كانت «جين» تحتاج إلى أن تبقى مستيقظة في سريرها، وأن تعيش من جديد كل لحظة مرت بها، واستعادة كل الحركات التي بدرت عن «بيدرو». إنها تلميذته، كما أن «تريستاو» تلميذها... لكن في وحدة الليل، كانت تركز تفكيرها في «الدوق» وحده وترمي بذراعيها الفارعين على جانب السرير الكبير. لقد وقعت في غرام «الدوق» وهي كذلك تحترمه. وهذان الإحساسان عندما يجتمعان، ينجم عنهما عذاب ولا أجمل منه.

في إحدى الأمسيات، وقفت «جين» تتأمل بإعجاب مكتب «الدوق» الجميل المزين بالأوراق الغريبة. وقالت:

– هكذا إذًا، الأدغال تجذبك. كان «الدوق» قد سكب فنجانين من القهوة وقدّم إليها واحدًا. النار تشتعل في الموقد الكبير المبني من حجر القرميد. وكانت ألسنة اللهب تلقي بظلالها على المكتبة وعلى اللوحات المعلقة على الجدران. و «الدوق» يرتدي سترة عنابية ويجلس على كنبة ضخمة. فتح علبة مصنوعة من الخشب الاستوائي وتناول سيجارًا، لفّه بين أصابعه وقال:

– هل تقلقك الأصوات الإيقاعية التي تحدث في الليل داخل الأدغال يا «جين»؟ أنت فتاة شابة وفضولية. وعلى ما أظن فقد اكتشفت الحرية، لذلك تريدين التعرف إلى أشياء أخرى، أليس كذلك؟ عندما دخلت

«جين» مكتب «الدوق»، كانت الكهرباء تنير الغرفة، لكن سرعان ما شحت الأضواء وانطفأت بصورة نهائية. جاء أحد البدائيين حاملا شمعدانًا كبيرًا مرصعًا بالذهب. وقال «الدوق» لـ «جين»:

– إن الكهرباء انقطعت، وهذا يحدث غالبًا عندما تهب عاصفة. كانت الفتاة الإنجليزية مستمتعة بوميض الشموع المترجرج، الذي أضفى على الغرفة جوًا رومانسيًا. أجابت «جين» وهي تتكور في مقعدها الأحمر:

– نعم، يا سيدي، أرغب في رؤية الأدغال. ثم أضافت قائلة:

– لا يمكن لإنسان أن يعيش بجوار الأدغال دون أن يشعر بالسحر والانجذاب نحوها.

– هذا صحيح. أعدك بأنني سآخذك لزيارة الأدغال عندما يسمح لي الوقت، وسأريك الجوانب الرائعة منها. لكنني الآن، منهمك في زراعة البن وسأضطر إلى التغيّب عدّة أيام. كان يحتسي القهوة ويتكلم. ألقت «جين» نحوه نظرة سريعة، ورأت بعض الغموض في وجهه المضاء بأنوار الشموع الذهبية والمتأرجحة. وراحت تتساءل عمّا إذا كان «الدوق» سيبوح لها ببعض أسراره، كانت تتمنى أن يحصل هذا الاتصال، على الرغم من تخوفها من أن يبوح لها بقصة حب مع امرأة سمراء من بلاده. لابدّ من أنه قرأ ما يجول في خاطرها، فقال بنبرة فاترة:

– في الأدغال نباتات حيّة، وحيوانات صغيرة، إنها تعطّر الجوّ بآلاف الروائح التي يتعذر وصفها. الجمال يحاذي الخطر: فتتشابك الأزهار الناعمة كالحرير تخفي وراءها الثعبان السام والسريع والمفترس... أحيانًا يصل الإنسان أمام مساحة من المياه الصافية الشفافة، فتجذبه في

www.rewity.com

الطقس الحار، لكنها غالبًا ما تكون قد تسربت إليها الأسماك الضارية، آكلة اللحوم، ذات الأسنان القاطعة القادرة على قطع يد أو رجل في ثوانٍ قليلة. والمشهد الأكثر جاذبية «رقصة النار» عند الهنود: إنها رمز الحب والنار وهي العنصر الأنثوي. ابتسم «الدوق» بتمهل وراء سحب الدخان المتصاعد من سيجاره وأضاف:

– حتى الآن لم أعرف بعد من هو الأكثر إثارة: «رقصة النار» وسط أشجار الموز أم «الفلامنجو» الأصلية في كهف مسودّ بالدخان. هل سبق لك يا «جين» أن شاهدت «الفلامنجو» الأصلية؟

– مرّة واحدة في أحد الأفلام، لكني لا أعتقد أن ذلك يشبه ما يحصل في الواقع. أجاب «الدوق» وهو يبتسم بسخرية:

– بالطبع، إنه شيء مختلف. إن «الفلامنجو» في «أمريكا اللاتينية» مبارزة بين رجل وامرأة. وليست بالتالي ما تراه في الأفلام السينمائية حيث «الفلامنجو» عبارة عن استعراض تقوم به ممثلة سينمائية تدوس على قدم الرجل الذي يراقصها، وبين أسنانها وردة حمراء، إن «الفلامنجو» مليء بالرموز. فيه روح وعاطفة وضمير وإخلاص. المرأة هي البحر والرجل هو البرق. المرأة هي الأرض والقدر والرجل هو القوة والموت. كان «الدوق» مسترخيًا على الأريكة الواسعة وعيناه تشبهان عيني الصقر وتحدقان إلى «جين» ثم قال:

– أنت ما زلت في ربيع العمر! أمامك أشياء كثيرة للاكتشاف! ألست متحمسة أمام هذه الإمكانية، يا فتاتي، بعدما تخلصت من ارتباطك بواجبك نحو عمتك؟

– إني أعمل لديك، يا سيدي، أمامي واجب عليّ القيام به، لست ضيفة هنا. سألها «الدوق» بنبرة جافة:

– هل تحبين عملك؟ ألست نادمة لأنك تركت عالمك المتمدن وجئت إلى هذه البقعة الموحشة من العالم؟ أجابت «جين» ببساطة:

– بالعكس، أنا سعيدة لأنني هنا، قد أكون فتاة تعيش على الهامش، لكنني لم أكن قادرة على تغيير ما في نفسي. أرجوك يا سيدي أن تقول لي ما إذا كنت معجبًا بعملي أم لا؟ أنا أرى هذا المكان ساحرًا. قال «الدوق» بصوت منخفض:

– لقد بني قصري بمتانة، وهو يتوهج كالذهب وسط حقول البن. إنه قلعة محصنة ضد مخاطر الليل، والنساء اللواتي عشن في هذا المنزل على نوعين: اللواتي أحببته واللواتي كرهنه. ذهب ضحكهن وبكاؤهن، لكن القصر بقي. مرّات عدّة تساءلت: هل من العدل أن يدوم الحجر أكثر من الجسم؟ ما رأيك أنت يا آنستي؟ فوجئت «جين» بالسؤال وترددت بعض الشيء قبل أن تقول:

– أنا أرى أن الزهرة تؤثر فيّ أكثر من الإناء الذي يحملها، حتى ولو كان ذا قيمة كبيرة. وفي رأيي أن هذا ينطبق على الإنسان كذلك.

– فعلا. ومن الغريب مدى انعكاس الحياة في الأدغال. هناك أنواع مختلفة من النباتات: نباتات تأكل اللحوم، ونباتات للزينة، ونباتات مختبئة... يجب التحفظ من تلك الأخيرة، لأنها إذا وضعت عرضة للشمس تنطوي على نفسها. إنها أكثر سعادة وهي مخبأة، لأن جمالها داخلي، قلبها عميق وتخاف من إظهاره، لئلا يلحق به أيّ أذى. إنها

تفضل الظل... على الرغم من أنها لو كانت معرضة للشمس لأظهرت سحرًا جذّابًا غريبًا. نهض «الدوق» فجأة والسيجار في يده. فتح الستائر الحمراء وراح يتأمل المطر المتساقط على حجارة القرميد.

– يجب أن أتغيّب لعدة أيام يا «جين». استدار نحوها بقامته الطويلة السمراء وأضاف:

– سأترك «تريستاو» في عهدتك وأنا متأكد أنك ستسهرين على راحته. هل تخافين البقاء هنا مع الخدم برفقة ابني؟

– لا، إنهم يضحّون كثيرًا من أجل «تريستاو» وقد اعتادوا وجودي هنا. لا تخف يا سيدي، سأولي أمر «تريستاو» كل عنايتي.

– أشكرك يا «جين». أخذ يتأمل الرماد في طرف سيجاره، ثم عاد إلى مكتبه وفتح علبة صغيرة سوداء كانت «جين» تنظر إليه وتتساءل: «إلى أين هو ذاهب، ومع من سيمضي تلك الأيام بعيدًا عن «الصقر الذهبي»؟ كان نظرها يحدق إلى يديه الطويلتين المليئتين حيوية وقوة. هل ستلامس يداه امرأة أخرى؟» ابتعد «الدوق» عن مكتبه واتجه نحو النافذة من جديد. وسرعان ما اقترب من وراء «جين» راح قلبها ينبض بسرعة هائلة. وضع يديه الدافئتين على كتفيها وقال:

– لا تنتفضي بهذه الحدّة... بدا صوته كأنه مبحوح.

– لست أسدًا يخرج من الغابة متوجهًا صوبك.

– إنك تمشي كما يمشي الأسد. وعلى الرغم من شدّة انفعالها كانت تلفظ كلماتها بنبرة خفيفة. لم تكن تريده أن يذهب، لكنها لا تملك حق منعه. ليست سوى رفيقة ابنه. يد «الدوق» الموضوعة على كتفها

تجعلها مضطربة وخائفة في آن واحد. أخيرًا تحرك «الدوق» وشعرت «جين» بشيء ثقيل وناعم يمتد إلى عنقها. كانت في أصابع «الدوق» سلسلة أحاطت بعنقها.

– إنها حجر التنين ليبعد هذا الوحش عن بابك. قام «الدوق» بدورة حول المقعد وأصبح وجهًا لوجه أمام «جين». احتضن يديها بيديه وساعدها على الوقوف لتصبح أمام الضوء، وكانت عينا «الدوق» الذهبيتان تحدقان إلى الحلية، التي كانت تتوهج على بشرتها.

– إنها في لون عينيك. هل تزعجك هديتي يا آنستي الخجولة؟ سألته «جين» وهي تنظر إليه مترددة:

– ولكن ما هي هذه الحجارة؟ هل هي حجارة كريمة، يا سيدي؟

أجابها «الدوق» وهو يهز كتفيه:

– تقريبًا، إنها حجارة صغيرة جميلة. أنا لا أريد أن أزيّنك بالحلي الرائعة التي تثير غرائزي. أشعر بأنني بمثابة أب لك. لاحظت أنك لا تملكين شيئًا من هذه التفاهات التي تحبها النساء عادة. ألم تحبي هذه الجوهرة يا «جين»؟ أعتقد أنها تليق بك. كانت تقاوم لتتخلص من قبضة يده ولتنتزع السلسلة. وفهم «الدوق» ماذا تضمر فراح يشد أكثر على قبضته. وهمست «جين»:

– إنها زمردة حقيقية. لا أستطيع... لا...

– بل ستقبلينها. أريدك أن تعرفي شيئًا: إن رجلا في مقامي، من النادر أن تتاح له الفرصة للإعراب عن إقراره بالفضل. يمكنه في كل الأحوال أن يدفع ثمن الخدمات التي تسدى إليه. أنا أشكرك لأنك وضعت

www.Rewity.com

نفسك في تصرف ابني. ليس فقط كأستاذة أو رفيقة، بل أيضًا كصديقة يا آنسة «داير»، نحن نعيش اليوم عصرًا مضطربًا، وعلى الولد أن يشعر بصورة دائمة بوجود إنسان هادئ شجاع ومحب. أنت تتمتعين بهذه الصفات التي كنت أبحث عنها لرفيقة «تريستاو»؛ لذلك لم تعد هناك قيمة للجوهرة المعلقة في عنقك. إنها نوع من الزينة، لكن إذا احتجت يومًا إلى بعض المال. فيمكنك بيعها. توقف عن شدّ يديها وأعادهما إلى صدرها.

– حافظي على هذه الجوهرة يا «جين»، إنها نوع من التعويض في حال انتهت إقامتك في «البرازيل» بصورة مفاجئة.

– لقد تعلقت بابنك وآمل فقط لو أن عملي هنا يستمرّ بعض الوقت. لكن إذا تزوجت فلن تعود تحتاج إليّ.

– هل تعتقدين أنني أفكر في الزواج... مرّة أخرى؟ من تكون تلك الزوجة، يا «جين»؟ ألا تزالين تعتقدين بأني ملتهب حبًا بابنة عمتك الجذابة؟

– لا... لا أعرف إذا كانت المرأة الجذابة تؤثر في الرجل بصورة دائمة. أجابت «جين» وهي تعرف تمامًا أن «لارين» ليست هي التي تجذب الدوق «بيدرو» خارج «الصقر الذهبي». عندما قال لها «بيدرو» إنه مضطر إلى التغيّب عن المنزل بضعة أيام، كانت تلمع في عينيه شعلة، كأنه لم يعد قادرًا على مقاومة ما يجذبه إلى الخارج.

– أعدك وعدًا صريحًا يا «جين». عندما أقرر الزواج، فلن أتأخر في أن أبوح لك بذلك. وكما قلت، لن أحتاج إلى مربية. كما ترين يا «جين».

أنا صادق معك. أنت تفضلين الصراحة وأنا أعرف ذلك. أجابت بصوت هادئ:

– بالتأكيد يا سيدي، لكن ما كان ينبغي لك أن تقدم إليّ هذه الزمردة. قبلتها لأنني أعرف جيدًا أنك إنسان عنيد، أتسمح لي بالنظر إلى المرآة؟

– بالطبع، يا «جين»، وحررها بهدوء وقال:

– عندما يلتقي إنسانان عنيدان، فلابدّ من حدوث معارك.

– والأقوى هو الذي ينتصر دائمًا. توجهت «جين» نحو الباب وفتحته. ففي البهو مرآة كبيرة. ولما انعكست صورتها على المرآة، شعرت بسحر يغلفها. كانت الجوهرة المعلقة بسلسلة ذهبية رفيعة تلمع في عنقها. وتساءلت «جين»: «هل هذه أنا بالفعل؟» لم تعد «جين داير» الحقيقية، صارت فتاة ترتدي ثياب امرأة أخرى وعلى عنقها زمردة مستعارة. ولبرهة لم تر «جين» سوى صورتها في المرآة، ثم ظهر شبح «الدوق». كان يسيطر عليها برأسه وكتفيه. قال «الدوق» متعجبًا وهو يحدق إلى عيني «جين» في المرآة:

– أنت فتاة شجاعة ويمكنني الاتكال عليك في الأوقات العصيبة، أكثر من أي شخص آخر... جسمك فقط هو سريع التأثر، أليس كذلك؟

– أظن ذلك يا سيدي، أرجو أن تطمئن على «تريستاو» في غيابك.

– إذًا، يا «جين»، هل تحبين الجوهرة؟

– جدًا، يا سيدي، هذا لطف منك أن تدعني أتحلّى بها.

– أنا لست إنسانًا لطيفًا، افهمي ذلك بصورة نهائية. لم أطلب منك

www.rewity.com

المجيء إلى «الصقر الذهبي» لأنني أحب الإحسان. وكذلك لم أقدم إليك الزمردة لأني شعرت بأية عاطفة. أحاط كتفيها وأجبرها على الاستدارة والنظر إليه. اجتاحتها نظرته كالشعلة. وقال:

– أرجوك ألا تلعبي بالنار وإلا غضبت. عندما تهدى امرأة حلية تصبح ملكها. إن ما ترينه في المرآة يعجبك، أليس كذلك؟ هل عليّ أن أهزك كي تقولي الحقيقة؟

– أنا أعرف ما فعلت يا سيدي، أعطيتني ثيابًا، وبما أني لا أملك مجوهرات أرتديها مع هذه الملابس، أهديتني واحدة. سأرتدي هذه الحلية هنا، ما دمت تريد ذلك. وعندما تنتهي مهمتي وأغادر القصر، أعيدها إليك. كانت «جين» تتحلى بالشجاعة، لكنها في الحقيقة كانت مرهقة. «بيدرو» سبق أن قال: «إن وجودها في «الصقر الذهبي» سينتهي يومًا ما وأن «تريستاو» لن يحتاج إلى مربية». كانت الفتاة تنظر إلى مستقبلها من خلال غيمة رمادية، خالية من أيّ سحر، لذلك عليها أن تكون وقحة وتقول لـ «الدوق» ما يجول في رأسها. رفع «الدوق» وجه «جين» موجهًا إياه نحو ضوء الشموع المترجرج وسألها:

– ما الأمر؟ هل ترين أمامك مستقبلا خاليًا من الحب؟

– لم أعد أبالي. لقد قبلت ما لا مفرّ منه، ومن الأفضل الاستسلام والاستغناء عن بعض الأشياء.

– وما الذي ينقصك بالضبط؟ وضع «الدوق» يده على خصر «جين» وقربها منه قائلا:

– الإغراء شيء غريب يا فتاتي، وهو أحيانًا يسيطر على الإنسان دون

أن يشعر.

– لكن، أنا... أنا لست امرأة جذابة، يا سيّدي! كان تنفسها متقطعًا، وبدأت تتساءل في ذعر: «إلى أين ستصل بالحديث معه؟»

– من الذي زرع في رأسك هذه الفكرة الخاطئة؟ اقترب وجهه من وجهها، وبدأت تهاب الموقف.

– ليست فكرة خاطئة... سمعت أحدهم يقول إني لا أجذب الرجال. أتلعثم، وأبدو تافهة ومثيرة للسخرية، وأنت تجد متعة في تعذيبي. هذا يؤلمني، يا سيدي. لا تنظر إليّ هكذا، لن أدعك تسحرني أنت تعرف جيدًا مدى تسلطك على الناس...

– لكن الظاهر أنك لا تعرفين ما هي القدرة التي تتمتعين بها يا فتاتي، من كان ذلك الرجل؟ وماذا قال بالضبط؟

– حدث ذلك في أثناء حفلة أقامتها عمتي في منزلها.

– ومن كان هناك، ألم يكونوا كلهم من أهل المسرح؟

– نعم، إن أصدقاء عمتي معظمهم من أوساطها.

– هل أنت متأكدة أن الذي أبدى هذه الملاحظة رجل؟

– بكل تأكيد.

– هل تفهمين يا «جين»؟ هناك الرجال الحقيقيون وهناك الآخرون... ماذا قال لك هذا الرجل؟

– آه! لم تدرك ماذا قال! أراد أن يقول إن لا شيء في مظهري يجذب الرجال، وإنني أشبه الجنّيات، شيء من هذا.

– هكذا إذن... أحدهم رأى فيك شيئًا غريبًا ولم يعرف ما يسميه. هل

تعتقدين يا «جين»، أني سأتصرف معك هكذا؟ هل أتجرأ وأقول لك إنك ساحرة صغيرة شاحبة اللون ذات عينين خضراوين غامضتين؟ وإنك فتاة يتعذر على الآخر إدراكها؟ ألا تعرفين، يا «جين»، أن زهرة الحب الحقيقية هي وردة شاحبة؟ ارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة.

– لم يكن هناك مفرّ من أن يجرحك الآخرون، يا ساحرتي الصغيرة.

– شكرًا لأنك قلت لي ذلك. كان عليها أن تتسلح بالوقاحة، إنها طريقتها الوحيدة للدفاع عن نفسها. لمست أصابع «بيدرو» الزمردة، وشعرت «جين» بيده، وكادت تصرخ.

– إنني أحذرك يا «جين»، إذا حاولت أن تعيدي لي هذه الحلية، سيكلفك ذلك غاليًا.

– هل هذا تهديد يا سيدي؟

– نعم، يا فتاتي، مع النساء يجب التصرف أحيانًا بلباقة وأحيانًا أخرى بقسوة. إني أصرّ على أن تحتفظي بالجوهرة. شدّ ذراعه حولها ورمقها بنظرة لم يكن فيها شيء من القسوة.

– هذه الزمردة لا علاقة لها بالمجوهرات التي تقدم إلى زوجة أحد رجال آل «زاتو». إنها حجارة قديمة، عمرها عمر هذا القصر. إنها إحدى الحجارة الأولى التي استخدمها من أرض برازيلية سلفي الدوق «بيدرو». كانت مخصصة لحبيبته التي لم يحالفه الحظ كي يتزوجها.

– وتريد أن تقدمها إليّ؟

– يجب أن تملك هذه الزمردة فتاة مثلك، لأن الإنسان الذي استخرجها من الأرض ونحتها، يشبهك: إنسان كريم، ذو قلب طيب، ومستعد

للتضحية. حافظي على هذه الحلية، إنها لك. كان «الدوق» يتكلم بنبرة قاطعة، وبينما كان يرتب الحجارة على عنقها، أحنى رأسه فجأة وعانقها. شعرت «جين» بقشعريرة وحاولت أن تكبت دموعها. «الدوق» يجب ألا يعرف أنها تحبه. حاولت عدم التّحرك بين ذراعيه... لكنها سرعان ما تخلصت منه، وفرّت هاربة نحو السلّم والدموع تتساقط بغزارة من عينيها. كأنها في حلم، تركض دون أن تنهار قواها. تهرب من الإنسان الوحيد في العالم الذي تحب البقاء قربه. لو أنها تستطيع التوقف عن التفكير في تلك المرأة، التي هجرها والتي أعطته ثمرة حبها: «تريستاو». وصلت إلى غرفتها وارتمت على السرير ويدها تشدّ على الزمردة التي قدمها «دوق» آخر إلى إحدى الراهبات... هذه الحجارة تشكل تعويذة ترمز إلى الفأل. اندست «جين» في السرير وهي تشعر بأن شيئًا ما من «الدوق» لا يزال معها.

- 10 -

غادر «الدوق» «الصقر الذهبي» دون أن يودع «جين». وأخبرها «تريستاو» بأن والده جاء إلى غرفته في الصباح الباكر. ولما رآه مستيقظًا، قال إنه ذاهب لقضاء بعض الأعمال وسيضطر إلى التغيب أسبوعًا على الأقل.

– طلب مني والدي أن أكون مهذبًا وألا أزعجك يا آنسة.

– أنت لم تزعجني قط يا صديقي. ابتسمت «جين»، لكنها شعرت في قلبها بالحزن. لقد أصبحت تقريبًا فتاة غريبة، نسيها «بيدرو» في لحظة

الوداع. إن حادثة تلك الليلة ما كانت حصلت لولا وجود الزمردة، التي تعلقها بعنقها، ليل نهار، مخافة أن تضيع. لم يسبق لأحد أن قدم إلى «جين» هدية كهذه. وترددت مرارًا قبل أن تقبل الجوهرة، لكن سرعان ما شعرت بأن تلك الجوهرة تخصها وها هي تحافظ عليها. في خلال الأيام القليلة التي سبقت سفر «الدوق»، لم يحدثها عن الهدية بل كان يكتفي بأن يلقي نظرة إلى عنقها، من وقت إلى آخر ليتأكد وجودها حيث وضعها.

منذ غياب «الدوق»، كان «الصقر الذهبي» يبدو فارغًا في عيني «جين»، وكانت دائمًا تتوقع أن تراه عائدًا من حمامه الصباحي، أو من الإسطبل بعدما يكون قد امتطى حصانه وتفقد حقول البن. «الدوق» يملك أيضًا حقولا من القطن وغابة واسعة حيث يتم تكرير أفضل العطور. كانت «جين» تنظر حولها وهي جالسة قرب «تريستاو» في شرفة مبلطة بالفسيفساء. وكان الصبي الأسمر النحيل يطعم عصفورًا نقارًا في رأسه ريش أحمر.

ابتسمت «جين» عندما التفت الصبي نحوها. كانت عيناه الذهبيتان تلمعان. ومرّة أخرى لفت انتباهها الشبه الكبير بين الصبيّ وعمته الشابة. كان الولد يحدث «جين» في معظم الأوقات عن عمته. وكان يقول إنها امرأة جميلة كما تبدو وهي تضع على رأسها قبعة كبيرة بيضاء. قال «تريستاو» لـ «جين»:

– أحب أن أذهب إلى شاطئ البحر، اليوم الطقس حار يا آنستي، وهناك سنشعر ببعض الطراوة. رحبت «جين» بهذه الفكرة وهي

لا تصدق متى تتسنى لها فرصة الغطس في هذا البحر الأزرق.

– سأطلب من «جوستوس» أن يحملك. لا يمكنني أن أسمح لك بالمشي كل هذه المسافة يا صديقي. إذا سقطت وأصبت بشيء فإن والدك سيغضب مني.

– هل تخافين من والدي يا آنسة؟ استغرب الصبي كلام «جين داير». إذ لم يخطر بباله أن والده قادر على التصرف بغضب. حتى الآن لم ير فيه سوى العطف والحنان. أضاف قائلا:

– شاهدته مرات عديدة يبتسم لك، يا «جين»، أعتقد أنه يحبك.

أجابته «جين» بحدّة:

– إنه يحترمني. لكنه يحبك أنت كثيرًا يا عزيزي. وأنا لا أريد أن أجازف بأي شيء يمكن أن يحصل لك، عليك أن تقبل أن يساعدك «جوستوس». إنه إنسان قوي وخطواته ثابتة. كنت أتمنى لو أنه قادر على حملي... أنا أيضًا. ضحك «تريستاو» فرحًا. وعانق «جين». ثم ذهبا لإحضار ملابس السباحة وإعلام «جوستوس» بأنهما يحتاجان إليه. فجأة شعرت «جين» بإحساس غريب كأن هناك شيئًا في الأفق من الصعب معرفته. جذبت «تريستاو» إليها عندما وصلا إلى البهو وقالت:

– هل من الضروري أن نسبح في البحر؟ في غياب والدك يمكننا أن نسبح في الحوض. احتج «تريستاو» وفي عينيه نظرات عتاب ولوم قائلا:

– لقد وعدتني بذلك. لم أعد طفلا وأريد أن أنمو وأكبر حتى أصبح شجاعًا مثل والدي. يقول «بريميتيفو» إن والدي من أعظم رجال «البرازيل».

وأنا أريد التشبه به. أحب أن أسبح في البحر وأترك الأمواج تجرفني وتؤرجحني. وهذا مستحيل في البركة. إن الشيء الوحيد الذي أكرهه هو أن يحملني أحدٌ وعندما تصبح ساقي أقوى وأمتن، لن أدع أحدًا يحملني. أجابته «جين» بابتسامة:

– هذا عظيم. إصرار الصبي على التشبه بوالده أثّر في «جين» تأثيرًا عميقًا. من يتجرأ ويعاتبه على ذلك؟ «جين» نفسها تشعر بسحر وانجذاب إلى شخصية «الدوق». قالت له:

– اذهب وقل لـ «جوستوس» أن يحضر. وأنا سآخذ ملابس السباحة والمناشف وسأطلب من الطبّاخ أن يحضر لنا بعض الطعام لنأخذه معنا.

– أنت رفيقتي الحبيبة، وأنا أحبك. وضع «تريستاو» ذراعيه حول عنق «جين» وعانقها بشدّة.

– أنا أحب تناول المأكولات الباردة عندما أكون على الشاطئ، واستعمال الأيدي للأكل. لن نحتاج إلى أن نأخذ الملاعق معنا.

– ما رأيك لو اكتفينا بأكل بعض البيض المسلوق، والدجاج والزيتون والجبن؟ أجابت «جين» وهي تضحك وتشدّه بقوة نحوها:

– نعم، نعم، سنحاول أن نختلس من الطباخ كل ما هو طيب ولذيذ. ابتعد «تريستاو» وهو يعرج وذهب يفتش عن الخادم الهندي. وشعرت بغصة وهي تراه يبتعد. يجب أن تعتني به كل العناية. بعد نصف ساعة كانا في طريقهما نحو الشاطئ. كان «تريستاو» جالسًا على كتفي «جوستوس» وكانت «جين» تحمل سلة الطعام وثياب السباحة وبعض

المشروبات المنعشة المثلجة. كانت الريح تعصف آتية من البحر وراحت تلاعب شعرها وملابسها الحمراء وهي ترتعش فرحًا. إنه نهار رائع وكل شيء يبدو في منتهى السعادة، لكن عندما تسمع ضحكات «تريستاو»، كانت تدرك ما الذي يعكر سعادتها. فـ «الدوق» بعيد ولا يقاسمها الفرح. وهي تعرف أن غيابه عن «الصقر الذهبي» ليس بسبب العمل.

توقفت «جين» في الطريق المؤدي إلى خليج تحيط به الصخور وراحت تتأمل ذروة الأمواج الفضية فقلبها يتموج بإيقاع شبيه بذلك. وفوق المحيط تحلق طيور البحر، باسطة أجنحتها الواسعة، في سماء زرقاء. هذا الجمال الرائع سيطر على قلب «جين» ومخيلتها. أغمضت عينيها لتحفظ في أعماقها ذكرى هذه اللحظة. كانت تسمع أصوات البحر والعصافير وصوت «تريستاو» وهو يقول:

– تقدمي يا آنسة، لقد ابتعدت عنا كثيرًا. صرخت «جين» بصوت مرح:

– إنني آتية، أحاول أن أتفرج على كل ما حولي، فالمناخ جميل للغاية! قال «تريستاو» مازحًا وساخرًا:

– النساء يحلمن بصورة دائمة. أسرع يا «جوستوس»، صرخت «جين»:

– كلا، كن حذرًا يا «جوستوس» مع الصبي ولا تسرع. ركضت «جين» نحوهما وتعثرت على السلالم القديمة وكادت أن تقع على رأسها. ومن هذا الجانب للشاطئ الصخري يذوب العالم مع المحيط وشعرت «جين» بالخوف؛ لأنها سمحت لـ «تريستاو» بالمجيء إلى هنا. على أية

www.rewity.com

حال، هو و «جوستوس» وصلا بأمان إلى الشاطئ الذي يبدو مثل هلال من الرمال تحيط به الصخور الحمراء، والمياه الزرقاء الصافية تغطي من حين إلى آخر الرمال العاجية. إنه شاطئ منعزل وعر ورائحة الهواء مشبعة بالرطوبة.

عندما وصلت «جين» إلى الرمال، رأت «تريستاو» منهمكًا في خلع حذائه. أرادت أن تطلب منه أن يأمر «جوستوس» بالبقاء. لكن سرعان ما مرّ الهندي الشاب أمامها مبتسمًا لها بخجل، وأسرع راكضًا يتسلق السلالم التي تصل به إلى «الصقر الذهبي». قالت «جين» لـ «تريستاو» وهي تراقب الأمواج المتدفقة:

– لماذا لم يبق معنا؟ لا يسعها منع «تريستاو» من الذهاب إلى الماء، لكن عليها أن تطلب منه أن يلعب فقط ولا يذهب بعيدًا داخل البحر.

أجابها «تريستاو» وهو يخلع قميصه:

– لا يحب «جوستوس» البحر. إنه يفضل الأدغال، إنه هندي بالوراثة، أنا برتغالي. والبرتغاليون يحبون السباحة. قال لي والدي إن القباطنة البرتغاليين اكتشفوا جزءًا كبيرًا من العالم؛ لأنهم يتحلون بالجرأة وحب المغامرة.

– والدك يحب «البرتغال» كثيرًا، أليس كذلك يا صديقي؟

– نعم، يا آنستي. إن جدتي برتغالية. ولوالدي منزل في «أستوريل». لكنني أفضل أن أعيش هنا في «الصقر الذهبي». أريد أن أعيش هنا كل حياتي، وعندما أصبح شابًا، سأمتطي الخيل وأزور الحقول مثل والدي. وأصطاد الأسود في الأدغال وأحضر اجتماعات الهنود. إن هذا

شرف كبير... ما رأيك بوالدي يا آنستي، أليس رجلا عظيمًا؟ أجابت «جين» وهي تسرّح شعر الصبي:

– إنه أعظم رجل التقيته. والآن، يجب أن تعدني بألا تغطس في الماء قبلي. عليك أن تنتظرني حتى أغير ملابسي. إذا لم تطعني يا «تريستاو» سأغضب منك... في غياب والدك أنا المسؤولة عنك. وقد وعدت والدك بأن أسهر على راحتك حتى لا يحدث لك أي مكروه. أنت تعرف جيدًا أنك تعني له كل شيء. أجاب «تريستاو» بغمزة ساخرة وهو يلامس وجه «جين»:

– هناك عمتي في الدير، إنها شقيقته، كما تعرفين.

– أعرف، والآن ابق هنا والعب بالرمل ريثما أغير ملابسي وراء هذه الصخور الكبيرة، التي تشبه فارسًا أحمر مقطوع الرأس.

– ومن قطع رأسه؟

– والدك، بالتأكيد... وسوف يقطع رأسي إذا حدث لك أي مكروه، لا تريده أن يقطع رأسي، أليس كذلك؟

– بلى، لأن رأسك ناعم كجناح عصفور أسود وعينيك تبتسمان بصورة دائمة، وكذلك لأني أحب صوتك الغريب. وأضاف قائلا بجدية:

– هل تصبحين مسنّة عندما أكبر؟ كنت أفكر في أن أتزوجك، يا «جين».

– هذا لطف منك، يا «تريستاو»، لكن سأكون كبيرة السن وأنت ستحتاج إلى امرأة شابة وجميلة.

– كم عمرك؟

– عمري اثنان وعشرون عامًا. يمكنك أن تحسب الفرق الكبير بيننا. ستة عشر عامًا.. لكن ذلك لا يبدو في نظره هوة واسعة.

– لم أر في حياتي أجمل من تلك العينين الخضراوين يا «جين»، أعتقد أني سأبدو أكبر بكثير من عمري الحقيقي؛ لأن مسؤولياتي، ستكون كثيرة سأكون مثل والدي، وسيمتلئ وجهي بتلك الخطوط الصغيرة التي تتجوف كلما ابتسم. أتعتقدين يا آنستي، أنني سأشبه أبي في المستقبل؟

قالت «جين» وهي تنظر إلى وجه الصبي وتراقب ملامحه الناعمة:

– دعني أرى، نعم، إني أرى فيك ملامح العائلة، يا «تريستاو»، أنت أيضًا تملك عينين جميلتين مثل عمتك «ماجدلينا»، أو الأخت «ماريا». لكن، هنا، في طرف ذقنك، غمازة. ستشبه والدك عندما تكبر.

– لماذا يرتجف صوتك... إذا كنت خائفة من أبي، فسأعدك ألا أذهب إلى السباحة إلا بعد أن تغيري ملابسك. لكن أرجوك أن تسرعي!

– سأكون حاضرة بأسرع من لمح البصر، ركضت «جين» وراء الصخرة وخلعت ثيابها بسرعة وارتدت مايوهًا بني اللون. ثم هرعت تلحق بـ «تريستاو» وهي سعيدة بين مياه البحر وأمواجه. لو كانت وحدها لراحت تسبح في أعماق البحر ولبقيت وقتًا أطول في الماء؛ لأن الحمّام كان منعشًا وباعثًا للنشاط. لكن «جين» اقترحت على «تريستاو» أن يرتاح قبل أن يتعب، وأن يبحث عن الأصداف؛ لأنها تريد أن تلصقها على علبة السيجار الفارغة لتحفظها كذكرى لها. نظرت إلى «تريستاو» وقرأت في عينيه تساؤلا، فسارعت تقول:

– كلا. ليس الآن يا عزيزي. لكن يجب أن تعرف شيئًا عندما يطلب

مني والدك الرحيل، عليّ أن أذهب، فالحياة ليست دائمًا كما نريدها أن تكون... لذلك يجب الإفادة من الرمال الحارة، ومن الأصداف، ومن عصير الأناناس... ما رأيك أن نشرب منه الآن؟ إنني شديدة الظمإ.

همس «تريستاو» يقول:

– لا... لا أريدك أن ترحلي... أبدًا. عندما يعود والدي سأطلب منه أن يبقيك. ما رأيك لو تزوجك...؟

– «تريستاو» شعرت «جين» بصدمة في كلمات الولد. فهي تطابق حلمها الخالي من الأمل. وقالت:

– والدك «دوق». والرجال مثله لا يتزوجون الفتيات مثلي يا صديقي، إني أعمل لأعيش. وأنا لست بفتاة حسنة المنظر. أرجو ألا تقول لوالدك ما سبق وقلته لي الآن! إذا فعلت سأضطر إلى الفرار. سألها الصبي بعناد:

– لماذا؟ أنت فتاة شابة، والرجال يتزوجون الفتيات مثلك. وأنت أيضًا جميلة. إن عينيك خضراوين مثل الجوهرة المعلقة بعنقك. وقدماك جميلتان أيضًا.

– أنت ولد ناضج قبل الأوان. وابتسمت «جين» وهي تأخذ الصبي إلى ظل شجرة النخيل حيث كانت سلة الطعام.

– إني أقدر إعجابك بقدميّ يا عزيزي، لكن الكبار لا يتزوجون امرأة لأن أصابع قدميها مستقيمة. إنهم ينظرون أولا إلى الوجه. ولا يحب وجهي إلا الصبيان والكلاب... وراح «تريستاو» يقهقه:

– آه! يا «جين»، كم أنت ظريفة!

– هذا ما قلته. إني أشبه الجنيّة وسأختفي مثل غيمة سحاب إذا قلت لوالدك كلمة واحدة عن هذا الموضوع... سأكون «دوقة» جميلة؟ هل يمكنك أن ترسم لي تاجًا؟ تناولت «جين» قبعتها المصنوعة من القش ووضعتها على رأسها ثم قالت ساخرة:

– صاحبة السعادة، الدوقة «جين»، المشهورة باستقامة أصابع قدميها وبشعرها اليابس. وراحت ترقص رقصة إنجليزية حول شجرة النخيل. لم تفكر في أنها تملك موهبة التمثيل مثل عمتها «مادج»، لكنها في تلك اللحظة اكتشفت مدى موهبتها وفرحت بذلك، يمكنها دائمًا أن تفرح «تريستاو» وأن تخبئ حقيقة شخصيتها أمام «الدوق». هكذا لن يعرف أحد أي عذاب وأي خوف من الوحدة، ما دامت لن تبوح لأحد بشيء. سألت «تريستاو» بعدما انتهى من تناول الأناناس:

– ما رأيك لو نأكل الآن؟ وافق «تريستاو» بحماس. وطفقا يلتهمان من محتوى سلة الطعام التي كان فيها جوانح دجاج باردة، وبيض مسلوق وزيتون أسود، وروستو البقر البارد. كان «تريستاو» يأكل بشهية وهو منبطح على بطنه. سأل «تريستاو» «جين» وهو يقضم بيضة وابتسامة مرحة في عينيه:

– هل كنت تقومين برحلات في الهواء الطلق عندما كنت في «إنجلترا»؟ أعتقد أنها الطريقة الفضلى لتناول الأكل.

– نعم. لكن لم يسبق لي أن قمت بنزهة مرحة كهذه من قبل. هزّ «تريستاو» رأسه وقال:

– كنت أفضل لو أن أبي معنا الآن. لكان فرح جدًا. فهو يحب الزيتون والبيض. أتساءل، يا ترى ماذا يفعل الآن؟ هل تعتقدين أنه منهمك جدًا

في أعماله لدرجة أنه نسي وجودنا؟

– أنا متأكدة أنه لا ينساك أبدًا يا صديقي، ما ألذّ هذا الطعام! كانت «جين» تبتسم وهي تتكلم. كانت هي أيضًا تفضل لو كان «الدوق» بجانبها... وراحت تتخيله وهو خارج من الماء. أغمضت «جين» عينيها، تذكرت يده على ذراعيها وشعرت بالرعشة ذاتها. آه، لو يعرف أهمية هذه اللمسات الحارة. إنها أهمّ بكثير من الجواهر. لو عرف ذلك، لهزئ منها وعرف مدى تفاهتها... قال «تريستاو»:

– كنت أتمنى لو عندي شقيقات أو أشقاء ألهو معهم، فلن أكون عندئذ وحيدًا. هل أنت وحيدة يا «جين»؟ أجابت وهي تقدم له تينة كبيرة:

– لن أكون وحيدة معك يا عزيزي، إنك تأكل جيدًا وسوف تكبر قبل أن يعود والدك.

– أتمنى أن يأتي والدي بأسرع وقت ممكن. بعد الغداء، راح الصبي يمرّغ جسمه في رمال الشاطئ. ثم نام. كانت «جين» مضطربة. راحت تتمشى قرب مياه البحر، والرياح تلاعب شعرها. نعم، هي أيضًا تريد أن يعود «الدوق» بأسرع ما يمكن... لكن عودته قد تؤدي إلى تغيير الجو في «الصقر الذهبي». رفعت نظرها نحو السماء فرأت نسرًا أسود يحلّق بسرعة البرق، غيمة واحدة، في تلك السماء الزرقاء الصافية، جعلتها ترتعش. حدقت «جين» إلى الغيمة وبدت لها غريبة ومخدرة. وكأنها تريد التهرب من أفكارها، ركضت إلى البحر وراحت تسبح بحرية في المياه الزرقاء. أرادت أن تسبح؛ حتى يتوقف قلبها عن الخفقان... وهكذا لن تشعر بعذاب الفراق، فراق إنسان أعطاها لذة الحياة. لكن ابنه ينام على الرمال ويجب أن تظلّ على قيد الحياة، قريبة منه

عندما يفتح عينيه ويبحث عنها... عندما أفاق «تريستاو» كانت «جين» مستلقية تأخذ حمّام شمس. ولما رآها فرح وقال:

– اعتقدت أنك ذهبت.

– هل كنت تحلم؟ إني دائمًا بقربك. هزّ رأسه، لكن سرعان ما تعلّقت أصابعه بها في شوق مضطرب. عندما رأت «جوستوس» ينزل السلالم والكلب الضخم «آرنو» يقفز قربه. نظرت «جين» نحو السماء، لم تعد الغيمة وحيدة، فالطقس يهدد بالمطر. و «جين» تعرف أنه عندما تمطر في هذه البقعة من الأرض، فكأنه الطوفان. زخات المطر تضرب الحدائق وتحني أشجار النخيل حتى تلتصق بالأرض. المطر في البلدان الاستوائية قوي مثل الشمس، وكثيف كالحقول.

عادا إلى «الصقر الذهبي». وكل شيء يبدو باهتًا في غياب «الدوق». أصبحت الغيوم حمراء وذهبية في الغسق، لكن العاصفة لم تنفجر. بعد العشاء المكوّن من الباذنجان والبطاطا والسمك المقلي، راحت «جين» و «تريستاو» يلعبان لعبة الدومينو. في الساعة الثامنة، رأت «جين» أن الولد متعب بعد يوم طويل قضاه في الهواء الطلق. فأقنعته بتغيير ملابسه واللجوء إلى الفراش. وراحت تهزه إلى أن وضع ذراعيه حول عنقها وشدها نحوه قائلا:

– لا تذهبي.

– لا، يا عزيزي، سأبقى جالسة بقربك حتى تنام.

– أريد أن أقول... لا ترحلي أبدًا.

– أبدًا، هذا بعيد جدًّا. أما الآن فمازلت هنا. أنا رفيقتك وصديقتك. وبالنسبة إلى والدك، إني موظفة وأقل أهمية من «بريميتيفو». همس

«تريستاو» وهو يجذبها نحوه:

– ألا تحبينني؟ انغرزت الزمردة في جلد «جين» وأحست بألم ممزوج بالفرح لدى شعورها بأن ابن «بيدرو» يحبها... أما «الدوق»، فلابدّ من أن يكون الآن مع امرأة أخرى. واخترقت العذابات قلب «جين» كالسكين. أجابت «جين» وهي تقبل جبين «تريستاو»، وخده وعنقه:

– أنا أحبك بكل تأكيد. والآن عليك أن تنام جيدًا يا عزيزي، أرجو لك أحلامًا جميلة. سألها الولد وهو يغمض عينيه:

– ماذا ستفعلين الليلة بعدما أنام؟

– سأفرز ما جمعناه من أصداف جميلة، وغدًا نبحث عن علبة سيجار فارغة ونزينها.

– ابحثي عنها هذا المساء، هكذا يمكننا أن نبدأ بتزيينها غدًا. ابتسم «تريستاو» ثم اندس في السرير. شاهدته «جين» ينام. إنه ولد حساس وكثير الجدية بالنسبة إلى عمره. لقد تعلّق بها، لأنها تكرس له وقتًا طويلا. وعلى هذا الأساس قرر «الدوق» أن يأتي بزوجة إلى «الصقر الذهبي» بدلا من رفيقة. نهضت «جين» دون إحداث أية ضجة، بعدما سحبت يدها من ذراع الصبي. واحتلها الغضب والتمرّد: لن يتأخر «الدوق» عن طردها وتفتيت قلبها في الوقت المناسب. ألم يقل لها: «إني أعدك يا «جين»، إنه عندما أقرر الزواج، سأحدثك بذلك؟»

كانت يداها ترجفان وهي تهم بفتح الباب لمغادرة غرفة «تريستاو». في الممر أخذت «جين» نفسًا عميقًا لتهدئ أعصابها. وراحت تفكر يائسة وتتساءل: «هل يجب أن أكون فتاة تافهة؟ هل كان يجب أن أقع في غرام رجل جذاب؟» كانت يداها تشدان على درابزين الدرج المبني من

الحديد المصقول ونزلت إلى البهو الساكن والبارد. توقفت أمام المرآة، التي عكست صورتها برفقة «الدوق» في تلك الليلة الحاسمة. أما اليوم فهي وحدها مع الذكريات.

كلا، لا تريد «جين» التطلع إلى وجهها. ذلك الوجه العاجز عن تحريك رجل مثل «بيدرو». ابتعدت عن المرآة، وراحت نحو المكتب ودخلته مثل شبح، كانت الغرفة لا تزال تحتفظ برائحة السيجار. أضاءت الأنوار. وعلى الرغم من الألوان وجمال اللوحات، شعرت بأن الغرفة خالية من الحياة. كان المكتب مرتبًا. كل شيء كان مختلفًا في غياب صوت «بيدرو» الدافئ والعميق.

جلست «جين» على الأريكة الواسعة ورفعت غطاء علبة قديمة تبث الموسيقى، مصنوعة من خشب الورد. وسمعت أغنية برتغالية قديمة. كانت «جين» تعرف أنها تعذب نفسها عن عمد. لقد جاءت لترى تلك الأشياء القديمة والتحف الفنية التي جمعها «الدوق». أقفلت «جين» علبة الموسيقى ثم نهضت والدموع تنهمر من عينيها وهرولت خارجة من المكتب، لكن دون أن يلحق بها هذه المرّة أحد.

- 11 -

مضى أكثر من أسبوع على غياب «الدوق» دون أن يتضح سبب تأخيره. وتمكنت «جين» من إقناع «تريستاو» بأن والده منهمك في أعمال كثيرة. لكنها كانت متأكدة أن سببًا شخصيًا أبقى «بيدرو» بعيدًا عن «الصقر الذهبي». ومع مرور الأيام كان ينمو في داخل «جين» قلق رهيب. كانت

خائفة من أن يعود «الدوق» مع زوجة، فلا يعود لها مكان في هذا القصر.

صباح الجمعة، كانت الشمس تنير بأشعتها الصفراء الملتهبة ساحة المنزل، والعصافير الصغيرة الملونة لم تأبه بفتات الخبز التي كانت ترميها لها «جين»، بل تختبئ هربًا من أشعة الشمس الحارقة. والفراشات الخضراء والليلكية تطير وتصفق بأجنحتها الشفافة. كان «تريستاو» يسرح، مرتديًا البنطلون القصير الأخضر والقبعة المصنوعة من القش. و «جين» بفستان خفيف تبحث عن الظل. قبل موعد الغداء، عادا إلى المنزل، حيث تضفي مجاري الهواء برودة منعشة، وكانت أشجار السرو تتحرك ببطء، كأنها لولبة من حديد. وبدت النباتات المتسلقة الخضراء معدنية شديدة التألق.

أسندت «جين» ظهرها إلى عمود وشعرت بخفقات قلبها الحزين. لكن «تريستاو» لم يتذمر من النوم في وقت القيلولة. وضعت «جين» الصبي في السرير هادئًا، ثم راحت إلى غرفتها واستراحت في الكرسي الطويل. اليوم بالذات كانت «جين» تشعر بالكسل مثل ابنة عمتها «لارين». كانت تحتاج إلى ساعة أو ساعتين لتكون وحيدة في مكان منعش يتلاءم مع مزاجها القلق. خرجت إلى شرفة غرفتها وراحت تتأمل الحقول المزروعة الواسعة الممتدة إلى ما بعد الحدائق التي تحيط بالقصر.

أحست «جين» كأن صوتًا يهمس في أذنيها: «هل تخافين؟ لا تكوني حمقاء يا «جين»! إن «الدوق» على بعد كيلومترات عديدة ويستفيد من حريته!» دخلت الفتاة إلى غرفتها وتناولت قبعة من القش وخرجت. كان الصمت يعمّ القصر. لابدّ من أن الخدم الهنود يأخذون قسطهم من

الراحة.

في البساتين، كانت أقراط الموز الثقيلة جامدة لا تتحرك. رائحة الكاكاو القوية تعطر الجو. والدراق (الخوخ) الصغير يلمع كالشمس. ظلت «جين» تمشي حتى دخلت الأدغال. أشجار شاهقة تبرز نحو السماء مثل نافورات الماء. نباتات كالخنشار المختلف الألوان ونباتات متسلقة ومتشابكة وأغصان الشجر وأوراقها متداخلة مما يجعل الظلال وارفة ونادرًا ما يمكن رؤية الفضاء.

شعرت «جين» بانفعال مضطرب عندما أزالت الأغصان لتدخل إلى فردوس أخضر حيث ترتفع زقزقة العصافير، في أعلى الأشجار، وطنين الحشرات. كل هذه الأصوات من حولها تنسج عالمًا حيًّا لا يرى.

راحت «جين» تتأمل بتعجب الأشجار العملاقة ذات الزهور الحمراء: كأن النار أضرمت أزهارها. وأعجبتها أيضًا الشجيرات المتصدعة تحت رزماتها الليلكية، والأشجار المحاطة بالنباتات المتسلقة الصفراء الوردية التي تشبه الوشاحات الشفافة. في هذه الجنة الخضراء ينبثق سحر غريب. لقد عرف «بيدرو» هذا المكان منذ طفولته.

رأت «جين» في مفرق الأغصان زهرة سحلبية تشبه تلك التي أهداها إياها في اليوم الأول من وجودها في «الصقر الذهبي». مدت يدها وقطفتها بتأن. لونها أحمر داكن مرصعة ببقع ذهبية. وتذكرت «جين» كلام «بيدرو» حول حياة النبات والأزهار في الأدغال. وراحت «جين» تتأمل الزهرة البرية الأنيقة. تساءلت عما إذا كانت الزهرة تزداد جمالا لو علّقت على شعر أسود لامرأة برازيلية، مثل «فيليسيا دي إيفانجيل» مثلا. كانت «جين» منزعجة من دوران أفكارها... فهي تكره عذاب هذا

الحب الذي يجعلها تتخيل باستمرار أن «الدوق» مع نساء جميلات. إنه عذاب تشعر به «جين» وحدها. فهو لم يفكر فيها وربما نسيها أو هو لا يعلم شيئًا عما تعانيه.

بعد مغامرتها في الأدغال، هذا العالم الغريب الساحر والمضطرب، تنبهت «جين» أنه من السهولة أن يضيع الإنسان في قلب الأدغال. إن جمال الغابة خداع، كما تعرف أنه خطر وعليها أن تبقى هنا، مختبئة وسط النباتات المتسلقة، يهددها طنين الحشرات وزقزقة العصافير. كانت تنظر حولها عندما شعرت بوخزة خفيفة في ذراعها. وتطلعت فرأت حشرة مفترسة. جناحاها يرتجفان ثم ينطويان ولا يتحركان. كانت نحيفة، ولونها شاحب. فلم تصدق «جين» أنه يمكن لحشرة جميلة كهذه أن تكون مؤذية... وتذكرت ما قاله لها «الدوق» في إحدى الأمسيات عندما حطت حشرة مشابهة على نافذة مكتبه. قال لها وهو يبتسم بسخرية إن هذه الحشرة تصلي طالبة الغفران، لأنه من عادتها أن تقتل من تحب. همست «جين» تقول:

– اذهبي يا صاحبة الجمال الشؤم. بدت عينا الحشرة كأنهما تحدقان إلى «جين». وما لبثت أن فتحت جناحيها وطارت بين الأشجار. تبعتها «جين» بنظرها. فلاحظت أن السماء بدت داكنة. فأصغت قليلا لتسمع صوت المطر على الأوراق الكبيرة. وشعرت بقشعريرة عندما سقطت قطرات المطر الكبيرة على عنقها وذراعيها. يا إلهي! من الأفضل أن تعود بسرعة قبل أن تبلل كليًّا. راحت تركض وتسمع انهمار المطر بقوة. شعرت كأنها في منزل ضخم مليء بالنباتات الخضراء التي تتصاعد منها العطور الوحشية. الغيوم تتكدس والعتمة بدأت تعمّ الغابة. أضاءت

السماء وأضاء برق فضي جذوع الشجر، يرسم بوضوح الأوراق والأزهار. احتل الذعر قلب الفتاة الإنجليزية الضائعة وسط عاصفة استوائية. إنها لمجنونة حقًا! كان عليها أن تدرك أن يومًا حارًا كهذا ينتهي بعاصفة... التمع البرق مثل سهم ناري بين الأشجار ساطعًا على شبحها الهارب وهطل المطر مدرارًا وتبلل ثوبها الخفيف الذي راح يلتصق بجسمها. كانت «جين» تركض مثل حيوان صغير مذعور وفي رأسها فكرة واحدة. الخروج إلى الهواء الطلق... البرق يتعاقب مضيئًا لها الطريق، لكن الأغصان المتدلية تمنعها من التقدم، وتخدش قدميها وذراعيها ثم قالت:

– يا إلهي! اصطدمت بكل قواها بشيء ما تصورت أنه جذع شجرة. إلى أن ارتطمت يداها بعنف في جسم إنسان. لا يمكن أن يكون سوى جسم «الدوق»، الناعم والقوي... لكن ذلك مستحيل، فهو على بعد كيلومترات من الغابة.

– «جين»! هذا الصوت جعل «جين» تحس أنها في حلم أو كابوس.

– هذا أنا، «بيدرو». أتسمعيني، يا مجنونة...؟! «جين»، توقفي عن الارتجاف هكذا... وإلا فإنك تحطمينني!

– سيدي... «بيدرو»... أهذا أنت؟ تعلقت أصابع الفتاة به. وفي نور البرق رأت وجه «الدوق» ينحني على وجهها، وعيناه السمراوان تلمعان باضطراب. إنه هو نفسه، إنها تلمسه وتراه... وهو يشدّ عليها بقوة، لم تره غاضبًا كالآن... كان يبدو عليه أنه يريد قتلها، أسند ظهرها إلى شجرة وراحت يداه تمسحان الدموع عن خديها.

– «جين»! أيتها الفتاة الحمقاء! راحت يداه تتحسسان شعرها المبلل

وعنقها. وكان المطر يهطل بغزارة فخلع «الدوق» سترته ووضعها على «جين» التي كانت ترتجف بردًا. كانت على وشك الإغماء. قالت هامسة:

– هنا، تحت الأشجار، خطر علينا.

– الخطر موجود في كل مكان. النساء يرتدين الثياب الخفيفة ثم يتكلمن عن الخطر!

– أنا أعني خطر الصاعقة، «بيدرو»! لنذهب بسرعة، أرجوك!

– سأفعل عندما تكونين مستعدة لذلك. أعتقد أنك تخافين مني أكثر من خوفك من العاصفة. ما يحدث في الطبيعة ليس سوى عاصفة تنتهي بعد قليل، لكن الذي يجمعنا لن ينتهي أبدًا، أليس كذلك؟

– أنا... أنا لا أعرف ماذا تقصد. لم تفهم سبب الحنان المندفع. وسط اضطرابها. لم تكن ترى سوى شيء واحد: «بيدرو»، قد عاد إلى «الصقر الذهبي». وبحث عنها في كل مكان إلى أن وجدها هنا. أمر «الدوق» «جين» وهو يمسك ذقنها ويبعده عن صدره، رغبة منه في أن يجبرها على النظر إليه.

– لا عذر بعد الآن يا «جين»! عانقتك، لأنك سرقت قلبي بعينيك الزمردتين يا ساحرتي الصغيرة، ولأنك وضعت على صدري يديك النحيلتين لتشعلي قلبي. أتحبينني يا «جين»، كما أحبك؟ قالت «جين» وقد فوجئت:

– أحبك؟ كنت أود ألا أحبك، حاولت... أنت وأنا... إننا من عالمين مختلفين.

– أنا أقول يا «جين»... إن جسمينا مفترقان فقط.

– أريد أن أتحدث عن وضعنا...

– صحيح، يا حبيبتي، هذا الحديث مشوّق. وضعنا لا ينقصه الإغراء حتى تحت الطوفان وعلى الرغم من البرق الذي ينير عينيك الساحرتين.

– أنت مصرّ على تغيير كلامي. حاولت «جين» التخلص من «الدوق»، لكنه كان يحبسها بين ذراعيه ويشدها نحوه بقوة.

– يا سيدي، أرجوك، هذا جنون! عندما تتوقف العاصفة، سوف تندم على كل ما قلته.

– أتريدين أن تقولي إني سأشكر العاصفة، لأنها سمحت لي بأن أكلمك...؟ خفض عينيه صوب وجهها الشاحب والمبلل حيث كانت نظراتها الخضراء تلمع.

– هذا غريب: إنه من الصعب الاعتراف بحب امرأة نحبها، فكيف مع امرأة عابرة كنت أودّ أن أطلعك على شعوري بهدوء، لكن لم تسنح لي الفرصة. كان يجب أن يحصل ما حصل. إنها عاصفة في قلب العاصفة.

– أنا لست سوى رفيقة ابنك. وإنني فتاة فقيرة، خالية من الجاذبية، وتافهة. لا أفهم ماذا تنتظر مني، لكن... لا أريد أن أذلّ حبي بقبول علاقة معك. لقد اعترفت لك بكل شيء، وأرجوك أن تصدق أن ما أقوله حقيقة! همس «الدوق»:

– إنني مقتنع تمامًا، أيتها المخلوقة الصغيرة غير الواقعية! آه! يا «جين»! أنت تدافعين عن شرفك، حتى وأنت بين ذراعي، أليس كذلك؟ أرجوك أن تصدقيني، إن ذراعي ستكونان فردوسك وبيتك.

أحبك يا فتاتي الصغيرة، روحك البسيطة وادٍ أضيع فيه عندما أنظر إليك، أرى براءتك وشجاعتك وسحرك. وأرى المرأة التي أرغب فيها والتي أريدها زوجتي... هذا إذا تمكن الطيّار من أن يقلع في هذه العاصفة. تعالي، حان وقت الرحيل...

– أنا لا أفهم... ماذا تقصد؟ إلى أين؟

– إذا حالفنا الحظ يا حبيبتي، إلى «البرتغال». ضمها «الدوق» إلى صدره في عناق حار فقالت:

– «بيدرو»، أرجوك!

– ألا تحبين العناق يا حبيبتي؟ يجب أن تعتادي ذلك من الآن فصاعدًا، لأنك ستصبحين زوجتي.

– «بيدرو»! خبأت وجهها في صدره وقالت:

– أريد أن أعرف ماذا جرى. أين كنت؟ اعتقدت أنك كنت مع... مع... قاطعها بسخرية قائلا:

– مع امرأة؟ هيّا، الوقت لا يسمح بالمناقشة. وصلت العاصفة إلى ذروتها وهكذا سيبقى الراغبون في الوصول إلى «الصقر الذهبي» بعيدين عنا. حتى أحقق أمنيتي. أمسكي بيدي يا حبيبتي واركضي معي! ستتذكر «جين»، طيلة حياتها، ما حدث تلك الليلة، أغرب ليلة في حياتها. عندما وصلا إلى «الصقر الذهبي» كان الخادم «بريميتيفو» في البهو حاملا المعاطف. وضع كل منهما معطفًا وراحا يحتسيان القهوة الساخنة. كان «تريستاو» مرتديًا ملابس السفر والحقائب في انتظار أن تنقل إلى السيارة الجيب الواقفة أمام ساحة القصر. بدأ المطر يخف والرعد يبتعد. لكن «جين» مازالت تسمع الأصوات الآتية من الأدغال. كانت أصابع

«تريستاو» تتمسك بأصابع «جين». صرخ «تريستاو» متأثرًا:

– الطبول! أبي إن الهنود يودعوننا.

– نعم يا بني، حمل «بيدرو» الصبي على ذراعه ووضعه في السيارة. ثم قال لـ«جين»:

– اصعدي يا حبيبتي، ساعد «جين» على الجلوس في مقعدها بحنان.

– سيقودكما «بريميتيفو» إلى الطائرة التي تنتظرنا في المدرج، ثم يعود ليأخذنا، أنا و «جوستوس». سنأخذ الاثنين معنا. يجب ألا نتركهما بين أيدي أولئك الذين يجعلون من «البرازيل» بلدًا مضطهدًا، يعيش في الذعر... كنت تتصورين أنني كنت أمضي كل هذا الوقت مع امرأة يا «جين»... قهقه «الدوق» وأضاف:

– يا حبيبتي، كنت أساعد بعض الأصدقاء على الرحيل من «البرازيل»، وكان يساعدني زوج «فيليسيا دي إيفانجيل». وصباح اليوم، سافرت «فيليسيا» وزوجها في الباخرة وهما الآن في طريقهما إلى «البرتغال». الآن حان وقتك يا «جين»، أرجوك، لا تنظري إلى الوراء. اذهبي إلى الطائرة وانتظريني مع «تريستاو». كل شيء كما أخطط ثقي بي. انطلقت سيارة الجيب. وألقت «جين» نظرة وراءها وشاهدت «بيدرو» يدخل المنزل مسرعًا. صرخت قائلة:

– «بريميتيفو»، ماذا يفعل «الدوق»؟

– إنه يشعل النار في «الصقر الذهبي» يا آنستي، في المزروعات وفي كل ما يملكه هنا.

–آه! لا. أغمضت «جين» عينيها وأحست بصدمة تخترق قلبها. ثم قالت:

– أهو مضطر إلى أن يفعل ذلك؟ أليس هناك حلّ آخر؟ أجابها الخادم الهندي بصوت ناعم وفخور:

– ليس ثمة حلّ آخر يا آنستي، إنها أرض آل «زاتو»، وعلى «الدوق» أن يشعل النار في القصر حتى لا يضع الأشرار أيديهم عليه. «الدوق» إنسان شجاع وعظيم. ما من أحد ينساه هنا في «البرازيل». خاطر بحياته لمنع العسكريين من اضطهاد الناس. ورأسه مطلوب إذا بقي في «البرازيل». لكن عليه أن يحرق المنزل. وبينما انطلقت السيارة في سرعة لا توصف كانت «جين» تفكر بألم أن «الصقر الذهبي» سيختفي إلى الأبد.

بعد مرور ساعة تقريبًا، أقلعت الطائرة في الليل. وكانت الأدغال مضاءة باللهب المتصاعد من «الصقر الذهبي»، ومن حقول البن والقطن. حلقت الطائرة فوق المحرقة الضخمة الحمراء الذهبية وكأنه الوداع الأخير. وكانت «جين» تحاول حبس دموعها فألقت نظرة إلى «الدوق» الذي كان يتأمل الليل من نافذة الطائرة. كانت ملامح وجهه ممتلئة حزنًا. أمسك يدها وضغط عليها بقوة وقال:

– «الصقر الذهبي» ملكنا. وسيبقى لنا إلى الأبد. لن يقع بين أيدي أولئك الذين لا يستحقون... ومن الآن فصاعدًا لن يتسكع أحد في هذه الحدائق. لن يحتسي أحد القهوة في ظل الأشجار. ولا يستمع أحد إلى أصوات الأدغال في ليالي الصيف الجميلة. وسيبقى «الصقر الذهبي» في ذاكرتنا، كما كان سليمًا، سيخرج من النار نقيًّا كالذهب. لم تتمكن «جين» من حبس دموعها. همس «الدوق» قائلا:

– لا تبكي يا حبي، ثمة حياة أجمل في انتظارنا. الطائرة تحلق و«تريستاو» نائم على كتف «جين». حمله «الدوق» ووضعه لينام على

الكنبة. همس «بيدرو» قائلا:

– إنه يشبه والدته العزيزة كل الشبه. نظرت «جين» إليه نظرة يائسة. وراحت تتساءل. والدته العزيزة؟ أدارت نظرها عنه لتشاهد، دون أن ترى، الليل الملبد بالنجوم.

– «جين»؟ وضع «بيدرو» يديه الحارتين على كتفي الفتاة وقال:

– أرجوك، اسمعيني. عندما أشرح لك كل شيء، لن تعود بيننا أية علامة استفهام. سألته «جين» دون أن تتجرأ وتنظر إليه:

– والدته... أما زلت تحبها؟ همس «الدوق» وهو يحني رأسه نحو رأسها وقال:

– سأحبها دائمًا؛ لأنها شقيقتي «ماجدلينا»... مات خطيبها في «البيرو» عندما كانت تنتظر منه ولدًا. فعلت ما يجب أن أفعله. وأصبح هذا الصبي ابني. و «ماجدلينا» أصبحت راهبة. لم أكن أتمنى لها هذا. كنت آمل أن تتزوج لكنها رفضت أن تحب رجلا آخر. لم أكن أفهم عنادها هذا، لكنني الآن أفهم تصرفاتها من كل أعماقي. أعرف الآن، ماذا يعني أن يحب الواحد إنسانًا أكثر من أي إنسان آخر. واستدار نحو «جين» التي لم تكن قادرة على الكلام.

حدق الدوق «بيدرو دي زاتو» إلى عينيها ورفع يده ووضعها على شفتيها. شعرت بلمسته الدافئة وأحست بفرح قوي يختلج في فؤادها. لا جدوى من الكلام... النظرات وحدها تتكلم والقلب يعرف أنه في مكان ما من الدنيا سيبنيان معًا قصرًا جديدًا ويسميانه «الصقر الذهبي».

تمت بعون الله